روايات عبير

آن هامبسون

لقاء الغرباء

١٦

روايات عبير

لقاء الغرباء

كلنا غرباء في هذا العالم ... الحب وحده يختصر المسافات ، يغيّر الثوابت ... يبدّل الاحوال ... يجعل المحال ممكنا ... والممكن مستحيلا ... هيلين وليون وروبرت هذا المثلث الشديد التناقض والتنافر من الاشخاص ، يجتمعون تحت سماء قبرص الحارّة وبينهم يتيمان صغيران لا يعرفان ما يجري ... الا انه الحب ... يلفهما ايضا بخيوطه الساحرة وينقذهما الى الابد من الضياع ... لكن هيلين الانكليزية الغريبة هل تستسلم لزواج فرضته الظروف أم تستجيب لأبن بلدها روبرت الرقيق ، المهذّب ، الذي يفهم طبعها ويشابهها في كلّ شيء؟

١- العرض والطلب

اضطرت هيلين الى الاعتراف بأن العرض جذاب، وهي ترمق صديقتها باهتمام ... نفقات سفرها الى جزيرة قبرص الجميلة وعودتها، بالاضافة الى مصاريفها وثمن وقتها، كل ذلك مقابل اصطحابها طفلين في الرحلة، وتسليمهما بسلام الى عمهما ليون بيترو وهو قبرصي يوناني يقيم في قرية لابيتوس الجبلية الجميلة، على مسافة ثمانية أميال من كيرينيا، في الساحل الشمالي للجزيرة.

قالت، وومضة حماس واهنة تمحو الأسى عن وجهها وتكسبه جمالا ناعما ورقيقا:

"كان لطيفا منك أن تفكري بي، فأنا - كما تعلمين - لم أحصل على اجازة منذ ثلاث سنوات تقريبا."

"لهذا السبب بالذات فكرت فيك حين أطلعني أصدقائي على الوضع. ستكون فترة استجمام رائعة بعد مرضك. ونوفمبر تشرين الثاني شهر بديع للترويح عن النفس - الحر فيه ليس شديدا وهكذا تستطيعين السباحة في البحر - والاستلقاء في الشمس على الرمال - وأنت عندك هناك صديقة لا بد أن تستضيفك أسبوعا أو اثنين."

تناولت هيلين فنجان بريندا وصحنها، وسكبت لها مزيدا من الشاي قائلة:

"ترودي ستفرح للزيارة. أعتقد أخبرتك بأنها متزوجة من قبرصي."

واستأنفت عندما أومأت بريندا برأسها:

"لهما مسكن على مشارف نيقوسيا، يبدو جميلا حسب الصور التي أرسلتها الي."

كانت ترودي صديقة قديمة لها في المدرسة ولم ترها هيلين منذ زواجها - منذ ست سنوات - من الشاب المليح تاسوس، الذي التقت به في اجازة في قبرص. ولكنهما اعتادتا المراسلة بانتظام، ودعتها ترودي عدة مرات للذهاب

الى الجزيرة، لتقضي عطلة معهما. وكانت هذه فرصة رائعة، وزادت هيلين لهفة وهي تسأل صديقتها عن مزيد من التفصيلات.

"قيل في البداية، أن أباهما كما ذكرت سيغادر المستشفى سريعا، فوافق صديقاي - وهما جاران له - على إيواء الطفلين. ولكن اتضح أنه سيمكث في المستشفى عدة أشهر، ولا يستطيع، بيل وجين رعاية الطفلين لأجل غير مسمى، فبيتهما صغير، ولهما ثلاثة أطفال يافعين، لهذا تقرر أن يذهبا - في الوقت الحالي - الى عمهما في قبرص."

وأخذت بريندا ترتشف الشاي، واستغرقت الفتاتان في التفكير هنيهة وعادت بريندا تقول وهي تطلق ضحكة قصيرة:

"عمهما، فيما علمت، وافق على مضض أن يكفلهما، فيبدو أنه لا يميل كثيرا الى الأطفال، ومن الواضح أنه عدو للنساء أيضا، ويبدو أنه لا يسر أحدا بصحبته."

قالت هيلين موافقة، وهي تعبس قليلا لفكرة اضطرار طفلين صغيرين للحياة مع رجل هكذا:

"من المؤسف ألا يستطيع صديقاك الاستمرار في رعاية الطفلين."

تناولت بريندا رشفة أخرى، قائلة:

"إن هذا مستحيل."

وبعد هنيهة تمتمت هيلين وكأنها تحدث نفسها:

"وهو أيضا لا يحب النساء."

وتذكرت سلوكها الشخصي نحو الرجال، مستغربة لحظة سبب ذلك، ثم تساءلت:

"ترى هل أساءت اليه امرأة ما؟"

"واضح أنه يكره النساء لما فعلته زوجة أخيه التي رحلت مع شخص آخر، تاركة زوجها والطفلين. كان تشيبي في الثامنة وفيونا تصغره بسنة. كان تصرفا أنانيا بشعا، ولكن بعض النساء قاسيات تماما."

ودار في خلد هيلين أن بعض الرجال هكذا. واستغرقت في الصمت وهي تفكر في سنواتها الثلاث مع غريغوري. كان زواجا طبيعيا هانئا، أو هكذا اعتقدت. ولكن، عندما وجد زوجها ميتا وسيارته محطمة، كانت معه فتاة من مكتبه. وقال أحد الأصدقاء: "إن الزوجة آخر من يعلم دائما". وغشيت هيلين مرارة بالغة، ثم اضطرت الى قبول الحقيقة وهي

أن علاقة زوجها بالفتاة ترجع الى أكثر من عام. وكانت هذه النهاية بالنسبة اليها، وفقدت ثقتها بالرجال نهائيا - واقسمت ألا تطمئن لواحد منهم مرة أخرى، أو تتيح لأحدهم فرصة ابتلائها بمثل هذه التعاسة ثانية. وجلبت عليها الصدمة مرضا طويلا، وخطيرا، لم يمتص قواها البدنية فحسب، بل أفقرها ماليا. ثم تحسنت صحتها بعد عامين، وأصبحت تأمل أن تشغل منصبا في المكتب حيث كانت تعمل قبل الزواج. ولكن المنصب لن يخلو إلا بعد عيد الميلاد، ولهذا السبب كانت حرة في انتهاز هذه الفرصة لزيارة قبرص.

وسألت عندما خطرت لها الفكرة بغتة:

"ما عمر الطفلين الآن؟"

"تشيبي في الثامنة، وفيونا في السابعة ... وهما مفعمان بالحيوية، ومن ثم فستكسبين المبلغ لقاء جهد."

وأجابت هيلين في حزن، وقد غامت عيناها الزرقاوان إذ تذكرت طفلها:

"لا ينبغي أن أتوقع أجرا بدون جهد ..."

لو أن طفلها عاش لكان الآن في الرابعة ... ولكنها هي وغريغوري لم ينعما به لأكثر من ستة أشهر ..

وأردفت:

"إنني - في أية حال - أحب الحيوية في الأطفال."

قالت بريندا محذرة، وهي تبتسم:

"أخشى أن هذين الطفلين يفيضان بحيوية كبيرة. والأرجح أنهما سيضجران قبل نهاية الرحلة بكثير. تعرض أبوهما يوما لحادث سقوط طائرة، وهو يرفض - لهذا السبب - إرسالهما بالطائرة. على أنك تستطيعين العودة جوا. هذا إذا راق لك هذا العرض."

فأسرعت تجيب:

"إنه يروق لي. ولكني سأحتاج الى أن أرى والد الصغيرين."

"أجل، في المستشفى، سأخبر بيل ليعد لقاء."

* * *

وإذ أحدثت هيلين أثرا طيبا في نفس الأب، اصطحبتها بريندا لرؤية الطفلين، وقبل أن ينقضي أسبوع كانت هي والطفلان على الباخرة كنوسس متجهين الى قبرص،

بعدما سافروا بالقطار الى أثينا.
كان الطقس جميلا، والسماء صافية زرقاء، والبحر الابيض المتوسط أقرب الى بحيرة منه الى البحر. وصاحت فيونا وهي تشير الى رودس:
"أهذه هي؟"
كانت الشمس تغرب خلفها، وشاب البحر خط من الضوء المتوهج امتد من الجزيرة حتى السفينة تقريبا. فرمق تشيبي أخته باستخفاف وقال:
"كيف تكون هذه؟ نرسو على البر قبل صباح الغد."
كان الطفلان يقفان عند الدرابزين مبهورين بغروب شمس الشرق العجيب، وأخذت هيلين تراقبهما ساهمة من مقعد يبعد قليلا، فحوالي الساعة العاشرة من الصباح التالي ستودعهما الى الأبد. كان هذا الخاطر يلقي عليها شعورا غريبا من الشجن - وأدهشها أن الطفلين احتلا مكانة في قلبها بهذه السرعة. ومع هذا الادراك، انتابها قلق شديد بصدد مستقبلهما، وعلاقتهما بعمهما الذي يكره النساء والصغار معا. كيف سيكون حالهما؟ وما لبثت أن أزاحت عنها هواجسها، وهي تلوم نفسها قائلة بعزم إن واجبها يقتصر فقط على تسليم الطفلين الى عمهما، فإذا أنجزت هذه المهمة، وأصبحت حرة في الاستمتاع بأجازتها فوق الجزيرة. وما يحدث لتشيبي وفيونا في نهاية الأمر لا يعنيها في شيء.
قالت فيونا وهي تلتفت باسمة باسطة يدها:
"تعالي وانظري يا سيدة ستوارت، تأملي الضوء المتألق على الماء."
ألقت هيلين كتابها على المقعد، ونهضت متجهة نحو الدرابزين وأمسكت باليد الممتدة. كانت صغيرة ودافئة والتفت الأصابع حول راحتها وشعرت هيلين بوخزة في قلبها، إذ تذكرت أن الطفلة لم تعرف حب الأم.
قال تشيبي وهو يمد يده الى يد هيلين الثانية اقتداء بأخته:
"أليس جميلا؟ ... يبدو كأن البحر يحترق."
قالت هيلين وهي تلاحظ سرعة هبوط الشمس:
"إنه جميل جدا حقا."
كان القرص يزداد هبوطا وهم يتأملونه، حتى أن الخط الناري على البحر أخذ يتباعد سريعا عن السفينة ويزداد

قربا من الجزيرة. وتطلعت فيونا الى هيلين وسألت في حيرة:
"الظلام يحل... لماذا يهبط بهذه السرعة؟"
ولما كان من العسير أن تفهم، اكتفت هيلين بالقول أن الشمس في هذه الجزء من العالم تغيب بسرعة، ولذلك يهبط الظلام على نحو مفاجىء.
وبدا الاستياء على وجه فيونا وهي تقول:
"لن نستطيع اللعب في الخارج مساء. وما أظنني أحب هذا."
فقال تشيبي:
"بل ستحبين... انظري مدى الدفء. كان البرد في الوطن يحرمك اللعب خارج الجدران، في أية حال."
وأقرته هيلين وهي تعجب للتعبير الذي بدا على وجه فيونا.
"ستعودين الى الثياب الصيفية وتستطيعين أن ترتديها على مدار العام."
واتسعت حدقتا فيونا العسليتان وقالت:
"على مدار العام؟ أليس لهم شتاء هنا؟"
وهزت هيلين رأسها ولكنها قالت:
"فترة الشتاء قصيرة جدا، والطقس لا يزال دافئا."
ظلوا يتأملون في صمت والسماء تزداد ظلمة، ثم أطلقت فيونا زفرة أسى:
"ليتك تمكثين معنا يا سيدة ستوارت. فلا تتركينا مع العم ليون."
وقال تشيبي:
"العم ليون مروع... لن يدعك تفعلين شيئا.."
وأضافت فيونا:
"إنه يجعلك تلتزمين الهدوء...."
"فإذا لم تلتزمي الهدوء، نظر اليك هكذا."
وقطب تشيبي أساريره حتى لم تتمالك هيلين نفسها من الضحك، وإن عاودها القلق على سعادة الطفلين. وقالت:
"أنا واثقة أنه ليس بهذا الشكل..."
ثم أردفت في فضول:
"إذن فقد رأيتما عمكما؟"
أجابها الصبي:
"لقد جاء لرؤيتنا غير مرة."

فقطعت فيونا كلامه قائلة:

"مرتين فقط يا تشيبي..."

ولكن الغلام هز رأسه وقال:

"ثلاث مرات. إنك لا تتذكرين المرة الأولى لأنك كنت صغيرة."

"إنني لا أصغرك بأكثر من سنة."

"ما كنت إلا وليدة حين جاء أول مرة... ولكنني أتذكره لأنه قال لأبي أنني أستحق صفعة!"

"يكن ليون بيترو. كان أسمر وقصيرا، ولكن ابتسامته كانت تلقائية وودية. وقال الماذا؟ ماذا فعلت؟"

"لا أتذكر. ولكن أبي قال أن عمي ليون لم يكن يفهم الأطفال."

قالت فيونا وهي تشد قبضتها على يد هيلين:

"ولكنك تفهمين الاطفال يا سيدتي، ألا تستطيعين البقاء معنا؟"

"أخشى الا يكون هذا ممكنا يا عزيزتي فيونا."

"هل لأنك لا ترغبين؟"

"هل تمكثين إذا طلبنا منه أن تبقي؟"

ابتسمت هيلين لطريقة تشيبي في السؤال، وقالت إنها متأكدة من أن عمه كلف شخصا برعايتهما.

قالت فيونا بالحاح في لهجة ملاطفة:

"ولكننا نريدك أنت. لماذا يجب أن تعودي؟ هل لك أولاد؟"

فاجابت هيلين:

"كلا ليس لي أولاد."

وكان فيونا أحست - بطريقة الاطفال - بالاسى في لهجة هيلين، لأن قبضتها اشتدت على راحة هيلين، وردت هيلين بضغطة صغيرة تنم عن الحب. وقالت مشيرة نحو الجزيرة، لتحول انتباههما:

"انظرا، هل تريان القلعة؟"

ولكن أيا منهما لم يبد اهتماما، وغشيهما اكتئاب عندما ادركا مدى اقترابهما من نهاية الرحلة. ولازمهما الحزن أثناء العشاء وعندما راقبتهما هيلين تساءلت: "كيف يمكن أن يوصفا بالحيوية." وعندما أوا الى قمرتهما حاولت أن تخرجهما من وجومهما قائلة، إن إقامتهما مع عمهما موقوتة، وإنهما سيعودان إلى أبيهما بعد أشهر قلائل.

سألها تشيبي وهو يأبى أن يتعزى:

"هل ستعودين الى الوطن رأسا، بعد أن تفارقينا في الصباح؟"

فقالت وهي تميل لتسوي غطاء الفراش فوقه:

"سأقضي أجازة أولا مع صديقة لي في قبرص، ثم أعود إلى انكلترا."

"كم من الوقت ستمكثين هنا؟"

قالت في لهجة غير واثقة:

"قد أمكث أسبوعين."

رغم أنها أبرقت لتبلغ بنبأ قدومها، فإنها لم تتلق ردا. ولكنها فكرت أنه من المحتمل أن يكون الرد وصل بعد سفرها، وهي تأمل في ألا تكون زيارتها مصدر مضايقة لترودي وتاسوس.

* * *

لاحت الجزيره للأنظار، حين صعدت هيلين إلى سطح السفينة في السابعة صباح اليوم التالي، تاركة الطفلين نائمين. كان خيط من النار يشق الأفق منبعثا من الشمس البازغة من وراء حافة العالم. وكانت السفينة تتجه شرقا على طول الساحل الجنوبي، ولكن على مسافة منه. وقال شخص ما:

"هذه بافوس."

والتفتت هيلين... انه روبرت ستوري المرح المسافر وحيدا عائدا من زيارة لأبويه في انكلترا. قضى وقتا مع هيلين والطفلين وشاركهما المائدة في الوجبات، وجالسهم على السطح، الذي كان لهم وحدهم تقريبا، فكان المسافرون نفرا قليلا، لأن شهر نوفمبر / تشرين الثاني أقل شهور السنة حركة. وعاد روبرت يقول:

"ستنقضي ثلاث ساعات تقريبا قبل أن نرسو."

ومرة أخرى القت هيلين نظرة الى الجزيرة، وقالت في دهشة:

"كل هذا الوقت؟ إنها تبدو قريبة جدا."

قال:

"بافوس تبعد مسافة كبيرة عن ليماسول وبافوس - كما ترين - على الجانب الغربي للجزيرة."

واقترب من هيلين ولم يبتعد. فرغم عدم

اكتراثها بالرجال لم تتمالك أن ترتاح إلى روبرت، بعينيه الصافيتين الزرقاوين وقسماته الصريحة أخبرها أنه أعزب وأنه أحب الجزيرة بعدما قضى عليها أجازة طويلة، فاشترى كوخا صغيرا على سفح تل، وحوله بمهارة إلى بيت للاقامة. وكان رساما. ومن الغريب أنه كان يعيش في لابيتوس، وقد عرف بيترو معرفة عابرة.

قال عندما ذكرت سبب قدومها:

"إنه شخصية صلبة، متشبث بالعزوبية، ولكن له وسائل لهوه طبعا."

وتضرج وجه هيلين، فضحك روبرت، وزادها حرجا عندما اضاف أن أي قبرصي لا يستطيع أن يعيش بدون امرأة. وأردف قائلا:

"سيقولون لك بصراحة إن الطقس هو عذرهم. أو بالأصح "تفسيرهم" لأن القبرصي لا يحلم قط بالتماس الاعذار لمسلكه."

سألته هيلين بفضول حتى تتصور البيت الذي سيذهب إليه الطفلان:

"ما شكل بيته؟"

فأجاب بلهجة تنم عن اعجاب:

"يا له من بيت! مشيد على ركائز على سفح الجبل شبيه ببيت خلوي بنغالو أبيض كبير، لكل حجرة شرفة، تطل من الخلف على سلسلة جبال كيرينيا، ومن الأمام على السهل الساحلي، وأشجار البرتقال والليمون وأنواع أخرى، ثم البحر الأزرق المترامي. ومن الشرفات الجانبية ترين منظرا شاملا للجبال والبحر. انه جميل جدا في الواقع، شاعري وخرافي بدرجة لا تناسب شيخا أعزب مثل ليون بيترو."

"تقول شيخا؟ كنت أظنه شابا."

هز روبرت كتفيه وقال:

"لعله في أواخر العقد الثالث، ويجوز أن أضيف أنه وسيم جدا. ولكنه محاط بجو من العجرفة يكسبه -كما قلت - مظهرا صارما صلبا."

فغمغمت هيلين، غير مطمئنة إلى احتمال أن يكونا بخير معه:

"آمل أن يكون الطفلان بخير معه."

فكان رده مثقلا بالشك:

"لا أدري. يدهشني أن يأخذهما - إذ يقال في القرية إن الصبر والفهم ليسا من خصاله. وأظن كل رجال الأعمال الشديدي المراس على هذا النحو. فالمال، - فيما يبدو - هو همه الوحيد في الحياة. سألته:

"وماذا يعمل؟"

فأجاب:

"من أعماله أنه يمتلك عدة مصانع للتعبئة في فاماغوستا، حيث تعبأ الفاكهة وتعد للتصدير. ثم يتجر في الأرض، ويمتلك مساحات كبيرة في أرجاء عديدة من الجزيرة، وأي شخص يمتلك أرضا هنا - في هذه الايام - يمكن أن يصبح مليونيرا بين عشية وضحاها."

وجدت هيلين نفسها تزداد قلقا - عندما أمدها روبرت ببضع تفصيلات عن مسلك هذا العم القاسي، الذي بدا وكأنه لا يحب إيواءهما في بيته. ولكن لم يكن في وسعها أن تفعل شيئا، فعادت هيلين تؤنب نفسها وقررت بحزم ألا تفكر في الأمر... وأخرجها من تأملاتها صوت روبرت يقول:

"هيا تأملي تلك الشمس والسماء... إنها جزيرة رائعة، ومن المؤسف أنك لن تعيشي هنا."

وسكت لحظة ثم تابع الحديث قائلا:

"ولكنك ستمكثين أسبوعين... هل أستطيع أن أصطحبك في جولة في أي وقت."

ابتسمت هيلين وقالت:

"سأكون مع أصدقائي... ولكنني أشكرك في كل حال."

لم تكن راغبة في صحبته، ولا صحبة أي رجل، ولكنها لن تخبره بذلك. وعادت تقول:

"سيكون مركز إقامتي في نيقوسيا، وأتوقع أن ننطلق في جولاتنا من هناك... إذا كان لصديقتي هي وزوجها من الوقت ما يسمح باصطحابي."

هز روبرت كتفيه ثانية، وقال إنه سيعطيها رقم هاتفه، لتتصل به في أي وقت تجده فراغا. فشكرته بدون أقل نية في أن تفيد من عرضه. وكان الأثر الذهبي اللامع أخذ يتلاشى - في تلك الأثناء - إذ ارتفعت الشمس، مرسلة سهامها خلال تلك السحب الصغيرة الطافية كنقاب فضي عبر سماء زاهية الزرقة. وألقى انعكاسها صفاء على النور،

وبدت الجزيرة وكأنها على مرمى حجر. لم تكن هناك تموجات في البحر، فلم تكن السفينة تهتز أقل اهتزاز، وهي تواصل تقدمها على طول الساحل الجنوبي للجزيرة. فقالت هيلين أخيرا:

"يجب أن أذهب لأعتني بالطفلين. من المؤكد أنهما استيقظا الآن."

★ ★ ★

رست كنوسوس في ليماسول الساعة العاشرة. وكانت هناك سيارة تنتظر. ولكن هيلين أدركت حتى قبل أن يتكلم تشيبي - أن الرجل الذي اقترب منهم لم يكن ليون بيترو. كان أسمر وقصيرا، ولكن ابتسامته كانت تلقائية وودية. وقال الرجل:

"هل أنت السيدة ستوارت؟"

وابتسم للطفلين، وداعب شعر فيونا بيده وهو يقول عندما أومأت برأسها:

"أوفدني السيد بيترو. إنه لا يستطيع الحضور بنفسه، لأنه مضطر للبقاء بسبب عمله. لهذا، سأصحبكم إليه."

"هل قال يجب أن أصحب الطفلين؟ فهمت أنني سأفارقهما هنا، في ليماسول."

وعندما زحفت يد صغيرة الى يدها، أطلت لترى نظرة توسل، على وجه فيونا الجميل. وبدا الرجل مترددا لحظة ثم قال:

"هذا ما قاله. أتظنينني أرتكب خطأ؟ كلا..."

ولكنه هز رأسه بسرعة وقال:

"لست مخطئا قال للموظفة في مكتبه أن تتصل بالفندق، وتحجز مائدة لأربعة للغداء. عندئذ شعرت هيلين بتوتر قبضة فيونا يسترخي فابتسمت لها بحنان. وبدا تشيبي هو الآخر سعيدا، وأشرق وجهه المليء بالنمش، فقالت ببشاشة والرجل يفتح باب السيارة:

"هيا إذن... الى أين نذهب؟ ليس الى لابيتوس؟"

"كلا الى نيقوسيا، فهناك مكتب السيد بيترو."

كانت فرصة سانحة إذن، فكانت هيلين تتوقع أن تستقل سيارة أجرة الى مسكن ترودي.

مكتب ليون بيترو خارج مركز المدينة. انه مبنى جديد ذو شرفة واسعة، وبدا أشبه بفيلا حديثة منه بمكتب. وأبدت هيلين دهشتها عندما غادر السائق مقعده، وفتح الباب، وسألها، رغم اهتمام الطفلين اللذين وقفا بجوار السيارة حزينين، مع أن هيلين كانت لا تزال معهما:

"هل أنقل حقائبك؟"

فقالت:

"قد يحسن تركها في السيارة بضع دقائق، فسأضطر لأن أستقل سيارة أجرة."

وبعد لحظة كانت هيلين في مكتب أنيق، تقف أمام مكتب، تتطلع إلى ليون بيترو الذي نهض عن مقعده عند دخولهم، وبسط يدا الى هيلين، فمدت يدها، وشعرت بقوة قبضته وهو يقول في لهجة هادئة مهذبة:

"صباح الخير يا سيدة ستوارت. لعل رحلتك لم تكن مضنية."

كانت له لكنة خفيفة لا تكاد تلاحظ. قالت:

"استمتعت بها كل الاستمتاع. شكرا لك يا سيد بيترو."

ولم تبتسم وهي تسحب يدها، بينما وقف لحظة يرمقها في صمت، ثم تحولت عيناه الى الطفلين. وتذكرت هيلين أنها لامتهم قائلة إن عمهما لا يمكن أن يكون بالقسوة التي صوراها لها. ولكنها الآن أيقنت أنهما وروبرت كانوا على صواب في وصفهم له. ولاحظت جمود وصلابة قسماته السمراء، وخطوط خديه وفكه، وانطباق فمه، والوميض البارد لعينيه اللتين لاحتا - وهو يقف في الظلال - سوداوين أكثر منهما اصطباغا باللون البني الداكن المميز للقبارصة من يونانيين وأتراك. أما شعره فكان منسقا لامعا، أسود يمسه الشيب خفيفا عند الصدغين. قال روبرت إنه وسيم، ولكنه بخسه حقه، اذ كان بالغ الوسامة، غير أن تعبير الخشونة والشراسة كان يشوب وسامته. ولم يكن من العسير التصديق أنه يكره النساء والأطفال.

قال وهو يوليها انتباهه ثانية:

"يسعدني أن أسمع هذا، كنت واثقة - لمعرفتي بابني أخي - من أنهما سيسببان لك بعض المتاعب."

ورمقها بحدة - وهو يتكلم - ثم أردف:

"يجب أن أشكرك إذ أحضرتهما الي بسلام."

وشعرت هيلين بالغضب من كلماته الأولى، فقالت بحدة تفوق ما كانت تعتزم:
"لم يسببا لي أية متاعب يا سيد بيترو. استمتعت بالرحلة تماما كما قلت."
وأومضت عجرفته من نبراتها المقتضبة. واغتاظت هيلين عندما شعرت بتضرج وجنتيها. كان هذا الرجل مثيرا للارتباك، شعرت أنها تستطيع أن تكرهه دون أي جهد.
كان سؤاله عن الرحلة، وشكره أمرا سطحيا نابعا من الحاجة لابداء المجاملة وحسن الأدب، ومرة أخرى، شعرت هيلين بقلق عميق إزاء حياة الطفلين معه. وعجبت من نفسها فهما غريبان عنها تماما، ولن تنقضي دقائق حتى تودعهما نهائيا، وليس في نيتها قبول دعوة ليون بيترو للغداء... أسبوع واحد؟ مستحيل... ولكن هكذا الاطفال يسيطرون على قلب الكبير المتفهم بأعجب الطرق، لا سيما اذا كانوا مثل فيونا وتشيبي.
وبتصميم على دفع الاضطراب الذي بدأ يمتلكها، سألت عمهما كيف تستأجر سيارة، فقال:
"ما أحسبك سترحلين في الحال! كنت أعتزم اصطحابكم جميعا للغداء."
وقالت:
"شكرا، ولكن..."
لولا أن تسللت يد فيونا الى يدها، ثم أحست بيد تشيبي باردة، فشعرت بغصة في حلقها. لم يكن عمهما قد وجه كلمة واحدة إليهما. ولدهشتها، وجدت نفسها تقول:
"يسرني تناول الغداء معكم."
ولم يزد بل أومأ برأسه اعترافا بقبولها، بينما قال:
"هناك أيضا مسألة دفع ما يستحق لك. أعتقد أن أخي دفع مقدما أتعابك ولكن نفقاتك ما أمرها؟"
قالت:
"إن السيد بيترو أعطاني مبلغا اضافيا فتساءل:
"هل هو كاف؟"
قالت:
"نعم - نعم، أشكرك."
ما كانت تود التردد، ولكنه لاحظه، فعاد يكرر

سؤاله، وبصره ثابت عليها، فأحست بأن الكذب مستحيل، واكتفت بأن قالت:
"الرحلة تتيح لي قضاء عطلة هنا في نيقوسيا، مع صديقة لي."
ورأته يخرج من حافظته بعض أوراق مالية، فقالت:
"إنني قانعة تماما."
فقال:
"هذه عملتنا طبعا، ولكنك ستجدين أن جنيهنا معادل للجنيه الانكليزي، كما ستجدين أن الاسعار في المتاجر كثيرا ما تحدد بالعملة الانكليزية بجانب عملتنا المحلية."
وناولها النقود، ففتحت فمها تهم بالرفض، ولكن شيئا في أساريره جمد الكلمات على شفتيها. وهو يضيف:
"أظن هذه تكفي لتغطية أية نفقات تكبدتها أثناء السفر."
ووجدت هيلين نفسها تقبل النقود، وان كان ذلك رغم ارادتها، اذ أيقنت أنها تأخذ أكثر مما أنفقت. تمتمت وهي تضع النقود في حقيبتها:
"شكرا لك."
وكان الطفلان يرمقانها منتظرين للامساك بيديها. وعندما لاحظ عمهما ذلك، وجه اليهما كل اهتمامه، وانفرجت شفتاه - بمعجزة ما - عن ابتسامة، وقال:
"كيف استمتعتما برحلتكما، هل شعرتما بتعب في القطار؟"
لم يخص بالسؤال أحدهما، ولكن تشيبي تولى الاجابة:
"نمنا ليلا فوق الاسرة المعلقة، وكان سريري اعلى الاثنين وأرادت فيونا أن يكون لها، لكنها خافت من السلم."
"لم أخف، إنما أردت النوم قريبة من السيدة ستوارت."
"وفي النهار... ألم تشعرا بملل لطول الرحلة؟"
"أحيانا كنا نضجر، ولكن السيدة ستوارت قصت علينا حكايات، ثم لعبنا بعض ألعاب الورق..."
وابتسمت فيونا لعمها في تردد، وهي تقول:
"أحضرت بعض كتب القصص أيضا، حتى نقرأ..."
ولكنه لم يبد أنه لاحظ ابتسامتها، وتجاهلت في عينيه السوداوين دهشة وهما تتجهان الى وجه هيلين. وتساءل:
"كيف فكرت في أشياء مثل هذه؟"
فقالت:
"توقعت أن يشعرا بالملل."

ودار بخلدها أنه ما كان ليفكر في مثل هذا الاستعداد وكان من الطبيعي أن يلقى عناء معهما ·

قال:

"يبدو أنك بالغة الكفاءة يا سيدة ستوارت·"

وتوقف لحظة ثم قال:

"هل أنت متزوجة؟··"

كان الفضول في نبراته وعينيه· ولعله استنتج أن لها زوجا، فعجب كيف تقوم برحلة كهذه وحدها· فقالت بهدوء:

"أرملة·"

وغمغم معتذرا، ثم أردف:

"إنك أصغر من أن تكوني أرملة·"

وقالت هيلين:

"أنا في السادسة والعشرين· ومات زوجي منذ سنتين، في حادث···" واعتذر ليون مواسيا مرة أخرى، ثم سألها اذا كانت أنجبت أطفالا، فردت وقد بدت في صوتها بحة مفاجئة:

"مات وليدنا وعمره ستة أشهر·"

كانت تسائل نفسها دائما: "هل كان غريغوري يظل بجانبها لو أن ابنهما حي؟"

كان اعتذار بيترو مفاجأة لها، إذ بدا أن صوته فقد بعض حدته:

"اسألك المعذرة يا سيدة ستوارت· صادفت حياة محزنة لشابة في سنك·"

وأصغى الطفلان باهتمام· كان واضحا، أنهما يفهمان، اذ سألها فيونا:

"هل مات أبوك يا سيدة ستوارت؟"

فلما ردت بالايجاب، شد تشيبي على أصابعها، وسألها:

"وابنك الصغير؟"

فقالت:

"نعم، وابني كذلك···"

ورمق ليون الطفلين بنظرة عابسة، وقال:

"لا توجها مثل هذه الاسئلة··· ينبغي ألا تجيبيهما يا سيدة ستوارت·"

فابتسمت قائلة:

"لا عليك··· انا لا أمانع البتة·"

وكأنما كان ليون يهم بالتعليق على ذلك، ولكنه عدل، وأرسل يطلب مرطبات لهم· وبعد ساعة، كانوا في الهيلتون يتناولون الغذاء وعندما خرجوا الى السيارة سأل ليون هيلين عن عنوان صديقتها، وعندما تأمل الورقة التي قدمتها، قال:

"سأقلك الى هناك· نعم - انه ليس بعيدا عن هنا· وشكرته هيلين برقة وهي تستقر بجواره، قائلة:

"إن مثل هذه المساعدة تهون على المرء وهو في بلد غريب·"

وأخذ الطفلان يحدثانها، ولكن الاكتئاب كان يبدو في لهجتها وشعرت هي نفسها بتعاسة أودت ببريق الاجازة التي كانت تتطلع إليها بشوق·

قال ليون وهو ينحرف نحو طريق آخر:

"ها هو ذا الطريق·"

وخفضت سرعة السيارة، وهو يتفرس في المباني البيضاء الناصعة، ثم قال:

"إنه في هذا الجانب··· آه ها هو!"

وشهقت هيلين عندما خرجت من السيارة· كان المسكن ضمن مجموعة من ست عمارات واكل نافذة شرفة تتدلى منها الازهار· وعلى الارض - حيث فناء مليء بأشجار مثقلة بالبرتقال، صف كبير من السرو يفصل العمارة عن العمارات المجاورة لها· قالت:

"سآخذ حقائبي·"

وانتظرت أن يفتح السيارة، ولكنه نصحها بأن تتأكد من وجود صديقتها أولا·

وتساءل تشيبي، وهو مصر على أن يلازمها لآخر لحظة:

"هل نستطيع أن نأتي معك؟"

والتفتت هيلين الى عمهما، فاذا به - لدهشتها - لا يمانع· وتبعها الطفلان صاعدين الدرجات الى الطابق الاول، حيث كان مسكن ترودي وتاسوس·

وأطلت امرأة من المسكن المجاور، عندما همت هيلين بقرع الجرس للمرة الثالثة:

"أتريدين مدام باولو؟"

"نعم··· أتعرفين أين هي؟"

تأملتها المرأة لحظة، ثم رمقت الطفلين واحدا بعد الآخر، مما ذكر هيلين بما كتبته ترودي حال مجيئها الى قبرص

لتقيم فيها:
"انهم أليفون، ولكنهم يحبون التدخل في شؤون الغير."
"ذهبت مع زوجها الى مصر. اضطره العمل للذهاب، فرحلا الاثنين الماضي."
وغاص قلب هيلين، وتساءلت:
"هل تعرفين متى سيعودان؟"
هزت المرأة رأسها أسفا وقالت:
"سيبقيان شهرين، هل جئت لزيارتهما."
فقالت هيلين:
"نعم، نعم، جئت من انكلترا."
وطغى عليها استياء مرير. جاءت كل هذا المسافة، ولا ترى ترودي."
قال تشيبي لعمه بعدما عادوا الى السيارة:
"صديقة السيدة ستوارت رحلت الى الخارج."
وأضافت فيونا:
"لن تعود قبل شهرين."
وأشاحت هيلين بصرها. كان الطفلان مغتبطين، وتساءل تشيبي بلهفة:
"هل تستطيع أن تمكث معنا حتى تعود صديقتها؟"
سارعت تقول:
"كلا يا تشيبي. لا أستطيع أن أمكث هنا شهرين."
والتفتت كاسفة البال الى ليون قائلة:
"أكون ممتنة اذا أوصلتني الى فندق."
ورفض في حزم قائلا:
"كلا، سوف تقيمين في منزلي."
"ولكن... كلا! لا يمكن أن أضايقك هكذا!"
ومست خط فمه القاسي ابتسامة واهنة، وقال في هدوء:
"ألم تسمعي بكرم الضيافة القبرصي، يا سيدة ستوارت؟ انت اسديت الى أخي خدمة كبيرة، ولن يرضيني أن أتركك وحدك في فندق."
وظل فاتحا باب السيارة قائلا:
"أخشى أننا سنضطر للعودة الى المكتب، ولكن بوسعي أن أتم عملي خلال ساعة، ثم أصحبكم الى بيتي في لابيتوس."

٢ - البيت مهر الفتاة!

ما أن حانت الساعة الثالثة حتى كانوا في طريقهم الى المنزل، ولم يكف الطفلان عن الثرثرة، سعيدين بهذا التحول غير المرتقب حتى أمرهما عمهما بحزم أن يركنا للهدوء، فكفا عن الفور، ولكن هيلين لمحت - وهي تلتفت لترى رد الفعل - فيونا تخرج لسانها وراء ظهر عمها، فحدجتها بنظرة حادة لكن فيونا اكتفت بالابتسام.
قال ليون، وهم يجتازون المشارف الشمالية لنيقوسيا:
"أخشى أن القافلة فاتتنا، ولهذا ستستغرق الرحلة ما يتجاوز الساعة."
كان الاتراك يسيطرون على الطريق القصيرة عبر الجبال، ولم يكن مسموحا بسلوكها بدون حراسة إلا للأجانب، وكان على اليونانيين أن ينضموا لقافلة الأمم المتحدة، أو يسلكوا الطريق الطولية. ومن الواضح أن هذا كان يسبب عناء لليونانيين، لكن ليون كان يتكلم بلا حقد.
وعلمت هيلين فيما بعد ولدهشتها - أن ليون بيترو لم يكن سوى واحد من كثيرين من يونانيي الجزيرة، الموالين للاتراك في الواقع.
ساد صمت في السيارة فترة، فاضطجعت هيلين في مقعدها تشعر براحة مستغربة، وتتأمل المنظر الطبيعي ... كانت المنطقة جذابة، تتلألأ فيها فيلات ومساكن ناصعة البياض. وما أقل الحدائق التي تخلو من أشجار الفاكهة المثقلة بالبرتقال والليمون على انواعه. وكان النخيل المشرئب نحو السماء زاهي الاخضرار وفيض من الألوان ونباتات الخبازي والجكرندة والورود تزدهر بوفرة.
كان رد الفعل الأول لهيلين عندما علمت برحيل ترودي وتاسوس الى الخارج، العودة الى انكلترا في أول طائرة لكن ليون قال أن بوسعها البقاء في بيته ما شاءت.
فقررت على الفور أن تقبل العرض فتبقى في

الجزيرة أسبوعين، حسبما خططت فتزور الأماكن المشوقة...
واذا سمح لها ليون باصطحاب الطفلين فان اقامتها سوف تكون أكثر متعة.

وما لبثوا أن خلفوا المدينة وراءهم، فبدأ فيض خضرة السرو والكافور والنخيل ينحسر عن أرض جرداء. على الجانبين مساحات شاسعة انتشرت فيها الصخور. أرض سمراء، شققتها الشمس الحامية المنصبة من سماء صافية. لم تكن هناك سحب الا فوق الجبال. ومن آن لآخر، كانوا يصادفون حمارا يرزح بحمله، وصاحبه يسير ببطء الى جواره. ولم يبد أي أثر للسكان، لكن بعض المحلات السكنية ظهرت أحيانا فوق السفح، تختلط فيها الاكواخ الطينية بالفيلات الحديثة البيضاء، التي أقيمت حديثا. وكانت الارض السمراء محروثة غالبا، بذرت فيها المزروعات التي تبرز فجأة اذا ما هطل المطر على الجزيرة.

قال ليون والطريق تلتوي:

"نبدأ الآن في المرور خلال الجبال، والطبيعة هنا رائعة."

كان باهرا أن تسفر كل انحناءة عن منظر جديد، المرتفعات غير المنتظمة، بعضها مكسوة وبعضها عارية. وفجأة بدا البحر أمامهم مباشرة، وبدأت السيارة تسير محاذية له. لم يكن هناك ما يعترض الساحل، لا بيت ولا أي مبنى آخر قرب البحر. وكانت قمم جبال كيرينيا الضخمة تبدو في شكل نصف دائرة، وهنا وهناك كانت قرية صغيرة تقبع في أحضان الأشجار. وقال ليون:

"هذه هي كيرينيا، وبيتي على ثمانية أميال من هنا."

كان بيت ليون بيترو كما وصفه روبرت تماما، لكن هيلين شهقت، حين وقفت بجوار السيارة - بعدما وصلوا أخيرا - تتأمل ما يحيط بها. كانت الجبال خلف البيت، والبحر الأزرق المترامي أمامه... وراح الطفلان يصيحان اعجابا، وقالت فيونا وهي غير مصدقة:

"هل يمكن قطف هذا البرتقال؟"

فقال ليون:

"بالتأكيد."

ومد يده فاقتطع غصنا صغيرا وأعطاه لفيونا، تتدلى منه ثلاث برتقالات بكامل أوراقها.

أدهش تصرفه هيلين كما بدا مفاجأة للطفلين أيضا.

وخطر لهيلين أنه قد لا يكون صارما كما قيل لها. وبينما كانت تبدل ثيابها للعشاء - بعد ذلك بوقت - أخذت تفكر فيمن قابلتهم، وفيمن يؤلفون أهل بيت ليون.

كانت هناك أخته كولا وقد تلقت تعليما عاليا. وهي مخطوبة وسوف تتزوج في نهاية يناير / كانون الثاني. في الثانية والعشرين، وتعمل في أحد مكاتب نيقوسيا. أما خطيبها تيودور - الذي يناديه الجميع تيدي - فيكبرها بأربع سنوات، ويعمل أيضا في نيقوسيا. ولم تكن تقابله هيلين بعد، لكن كولا أرتها صورته، فاذا به أسمر، وسيم وكان واضحا أن كولا متيمة به.

ولم تتمالك هيلين أن تقول، وهي تلمح وميضا في عيني كولا البنيتين الجميلتين:

"قيل لي أن معظم القبارصة يتزوجون زواج اتفاق، ولكن الواضح أن زواجك عن حب."

امتقع وجه كولا، ثم تمالكت نفسها وقالت:

"نعم. ثمانون في المائة من الزيجات القبرصية اتفاقات. فالذين يتزوجون عن حب ليسوا كثيرين. ولو تزوج أخي فسيكون لاتفاق ما، لأنه ليس من النوع الذي يقع في الحب."

وكانت في صوتها المنخفض، المبحوح، نبرة أسف. كان من السهل الادراك انها لا تكن حبا عميقا لأخيها، وان لم تكن مشاعره نحوها واضحة، فكان فاترا وكاد أن يكون جافا عندما قدمها الى هيلين.

وتلاها من أفراد البيت آسمينا عمة ليون، وزوجها فاسيليوس. كانت آسمينا بالغة الاهتمام بهيلين فأمطرتها أسئلة عن حياتها، وموطنها في انكلترا - أما فاسيليوس فاكتفى بأن يحدجها وهو يعبث بمسبحته. والواقع أن الانطباع الوحيد الذي تركه في نفس هيلين تمثل في صوت حبات مسبحته المتواصل. وفكرت لو أنها زوجته لفقدت صوابها. وتساءلت اذا كان ليون مولعا بمسبحته أيضا ثم تمتمت - لسبب غير مفهوم - ألا يكون.

أما أم ليون - وكانت بدينة، مغضنة الوجه، تلوح أكبر من سنوات عمرها الستين - فكانت هناك للزيارة، اذ كانت تقيم في بافوس مع ابنة متزوجة، واعتادت المجيء مرتين في العام لترى ابنها وكولا وقالت هذه:

"اضطررت أن أترك أمي وأجيء الى ليون، بسبب عملي في نيقوسيا فلم أكن قادرة على السفر يوميا من بافوس الى العاصمة."

وقد علمت هيلين - فيما بعد - أن آسمينا وفاسيليوس يقيمان مع ليون حتى شهر يناير / كانون الثاني. إذ كانت لهما دار تبنى وباعا بيتهما القديم عندما عرض عليهما مبلغ جيد.

ودار في خلد هيلين أنه لن ينتهي شهر يناير / كانون الثاني حتى يكون ليون وحيدا مع الطفلين، الا من الخدم.

* * *

رنين جرس في الطابق الأسفل أعادها الى إكمال زينتها. ليون ذكر أنها ستسمع الجرس قبل تقديم الطعام بعشر دقائق.وخاتفاسلتسااتعت ترياء، لن ذي ثو ترتدي؟ لا لأن للأمر أهمية فما كان لديها شيء جذاب، فهي منذ عقدت العزم على ألا تتزين لرجل ثانية، تعمدت أن تعاف ارتداء ما يبرز جمالها، لهذا اختارت ثوبا خلوا من الزينة، يضفي لونه الرمادي شحوبا على بشرتها، ويعتم زرقة عينيها. ورفعت شعرها الأسود الطويل في غير تأنق - وربطته بشريط أسود. ولم تلون خديها بلمسة من المساحيق، ولم تصبغ شفتيها بما يبدي رقة فمها المقوس.

كم بدت مختلفة عن كولا، التي ارتدت ثوبا قطنيا موشى بالزهور وأحاطت أحد رسغيها بسوار مرصع، والرسغ الآخر بساعة جميلة، وهما هدية خطيبها عند الخطبة، فبدت ضافية الفتنة. قالت هيلين في نفسها "هذا ما فعله الحب بك" وهي تتذكر فترة خطبتها الشاعرية.

كان مكانها الى يمين ليون، بينما جلس الطفلان في الجانب المقابل، يغشاهما التهيب، لكنهما استطاعا الابتسام حين جلست هيلين. وجذب ليون لها المقعد بحفاوة قبرصية. وقدم اليها الحساء من وعاء كبير. لم تكن واثقة أنها ستستسيغه، فأخذت قدرا صغيرا، لكنه سحب المغرفة من يدها، وقال ليون وهو يقرأ أفكارها:

"سيروق لك."

وأضاف قدرا أكبر، وهي تسائل نفسها بحرج متزايد،

كيف تتناول كل هذا. ولكنها أفرغته، وأعجبها كما قال ليون. الا أن الطفلين رفضا نصيبهما، إذ كان الحساء مصنوعا من لبن الماعز، وله مذاق حامض قليلا. وفهمت هيلين سر عزوفهما عنه، لكن عمهما أصر على أن يسكب وجبة ثانية، ولم يسمح لتشيبي بترك ملعقته الا حين بدأ يلهث كأنه يوشك على التقيؤ. شقيق ليون أخبرهما أن ليون لا يفهم الأطفال، وما كان أصدقه. فأول ما ينبغي معرفته عن الأطفال أنه لا يجب غصبهم على الطعام.

هذه المائدة حافلة بالطعام، واضطرت هيلين نفسها الى الحزم حتى لا ينتابها ما شعر به تشيبي. لم يحدث أبدا أن رأت هذه الكميات من الطعام في وجبة واحدة، رغم أنها لاحظت أن ليون نفسه كان مقلا في الأكل. وأخيرا، وضعت الفاكهة: برتقال، يوسفي، بلح، تين، موز. كلها من حديقة ليون. وعندما دعا ليون ابنة أخيه لتتناول ثمرة من التين، قالت:

"ليس هذا تينا، التين أسمر."

فقال وهو يضع واحدة في طبقها:

"تيني أخضر. ماذا تأخذ يا تشيبي؟"

فقال:

"لا شيء."

"خذ برتقالة!"

فبدا تشيبي مكفهرا، وقال:

"أرجوك يا عمي ليون."

لكن عمه قال:

"خذ واحدة!"

فلم تتمالك هيلين أن تدخلت قائلة:

"لا أحبذ الضغط عليه، فإنه... إنه.."

وقال ليون:

"حسن جدا."

ولكن كلمتيه انطلقتا بحدة، فأدركت هيلين بغريزتها أنه لم يرض عن تدخلها. فرمقته باعتذار وتذكرت أنها ضيفة في بيته. وقالت:

"إنني آسفة يا سيد بيترو، لكنه في الواقع تناول كفايته. الأطفال لا يتعودون بسهولة أي تغيير في نظامهم الغذائي."

قالت كولا في شيء من الدهشة:

"الا يأكلون البرتقال؟.."
واجابت هيلين:
"يأكلونه، ولكن الطعام الآخر، نحن لا نطهو بالزيت مثلا."
واضافت فيونا:
"ونحن لا نتناول نتفا من اللحم على أعواد، مذاقها كالدخان."
اجابه ليون وبدأ اللون الطبيعي يعود رويدا الى وجهه:
"إنك لم تتذوق الدخان أبدا."
"لا يهم، لا أزال أجد مذاقها كالدخان."
قالت أسمينا لفيونا:
"نحب أن يكون مذاق هذا اللحم كالدخان لأنه مشوي على الفحم."
ونظرت فيونا صوب عمها، قائلة:
"لا أحب هذا الطعام. هل أستطيع الحصول على بيض وشرائح بطاطس غدا؟"
وكان جواب عمها مقتضبا:
"ستتناولين ما نتناول، وسرعان ما ستتعودينه."
واخذ سكينا وبدأ يقشر تفاحة. واتقدت عينا فيونا، وخيل لهيلين - للحظة رهيبة - انها ستخرج له لسانها مرة أخرى، ولكم أراحها أن الطفلة فطنت فجأة الى أن الآخرين سيرونها.
عندما انتهى العشاء، غادروا الحجرة، وتناولوا القهوة على الشرفة في أقداح صغيرة. كانت قهوة تركية، وكانت أول رشفة كافية لفيونا. ووضعت قدحها بسرعة، وإذا بالسائل الأسود السميك يتناثر على غطاء الطاولة المطرز. ورمق ليون ابنة أخيه بنظرة غاضبة، وقال بحدة:
"حان الوقت لتأويا الى الفراش."
والتفت الى هيلين قائلا:
"أتسمحين بأن تعني بهما يا سيدة ستوارت؟ ستتولى أراتيه رعايتهما آخر الأمر، ولكن لعلك تقومين برعايتهما أثناء وجودك هنا؟"
كانت أراتيه هي الخادمة التي قدمت اليهم القهوة، وبدت جافة، ففاص قلب هيلين لفكرة أن تتولى الطفلين. واطلقت زفرة عميقة عندما تبينت أنها لا تملك أن تفعل شيئا، وبادرت قائلة:
"نعم بالتأكيد..."

وازدردت ما في قدحها.
كانت لحجرة فيونا شرفة تطل على البحر، أما حجرة تشيبي فكانت تواجه الجبل، وكانت الحجرتان مكسوتين بأبسطة سميكة ومؤثثتين على النمط الحديث، وقد ألحق بكل منهما حمام. واعجبت هذه الفكرة الطفلين ايما اعجاب، لكن وجهيهما كانا واجمين وهما يجلسان على سرير فيونا، ينظران الى هيلين وهي تغلق المصاريع. وتساءل تشيبي وهو ينظر الى قدميه بينما كان يهز ساقيه:
"هل تعتقدين، بعد أن رأيته، أنه بغيض؟"
وكان كل جوابها:
"ستتعودانه."
ثم أردفت:
"هيا يا تشيبي الى حجرتك، فان فيونا ستبدل ثيابها."
قال مبارحا الفراش، ومغادرا الحجرة:
"آه، وهو كذلك."
سألتها فيونا - بعد لحظات - وهي تتطلع اليها:
"الى متى ستمكثين؟"
فاجابت وهي تحكم الغطاء حول كتفي فيونا:
"سابقى أسبوعين، اذا لم يمانع عمك في استضافتي."
ثم أردفت:
"هل ستحتاجين الى بطانية؟"
فاجابت:
"أريد بطانيات."
واحضرت هيلين بطانية من خزانة الحمام، وفرشتها عليها قائلة:
"كلا، واحدة تكفي، فالحر شديد هنا."
"يسعدني أن تبقي معنا فترة طويلة."
قالت هيلين:
"هذا غير ممكن."
وبدافع غريزي، انحنت وقبلت خدها قائلة:
"طابت ليلتك يا عزيزتي فيونا... نوما هادئا!"

* * *

كانوا يجلسون تحت مظلة زاهية الألوان، في مرفأ كيرينيا، وقد رست أمامهم عدة قوارب صغيرة. وعندما أفرغ الطفلان قدحيهما نهضا واقتربا منها ليتأملاها. فهتفت هيلين عندما رأتهما يقتربان من الحافة:

"احترسا. ارجع الى الوراء قليلا يا تشيبي!"

قالت كولا، عندما أطاع تشيبي فورا:

"إنهما طفلان طيبان جدا."

كانت تتحدث بدهشة، والواقع أن هيلين لاحظت - في عدة مناسبات - عندما كان الطفلان يطيعان أمرا صغيرا بلا جدل. فتناولت هيلين كوبها وشربت، وهي تتأمل مرافقتها في فضول - وتلاحظ في الوقت ذاته ترددها - ثم قالت:

"كأنك تتوقعين أن يكونا أرعنين!"

فقالت كولا بعد تردد:

"رآهما ليون في انكلترا مرة أو اثنين - ولم يبد أنه وجدهما حسني السلوك بدرجة ملحوظة."

قالت هيلين، وهي تتذكر مناسبة أو اثنين أثناء الرحلة اضطرت الى كبح جماح أحدهما:

"لهما لحظات ازعاج، ولكن المعروف ان الطفل الهادىء يكون بليدا أيضا."

وتناولت كولا رشفة من شرابها وقالت:

"أراك تحبين الأطفال."

ولما لم تعقب هيلين، استأنفت قائلة:

"أنا أيضا أحب الاطفال، وأريد أربعة على الأقل."

ارتدت نظرة هيلين الى تشيبي، الذي كان يسرح البصر في المرفأ. كان هناك يخت يتحرك منسابا تحت ظلال الحصن، وانتابها شعور بالحزن. لو أن طفلها عاش، وبقي غريفوري بجانبها لأمكن أن تكون أنجبت طفلا آخر أو اثنين في هذه الأثناء.

وتأملت كولا. لم تكن تحسدها، ومع ذلك... قطبت جبينها وحولت بصرها. كلا. ما كانت تحسدها، وهي مقبلة على الزواج من رجل لا تعرف شيئا عنه. حقا، كانت تظن أنها تعرف هذا التيدي ولكن المرأة لا تعرف الرجل الى أن تتزوج منه. عندئذ تكتشف كل عيوبه، كل أنانيته وقسوته. وتكون الفرصة فاتت لتفعل أي شيء. كلا. ما

كانت تحسد كولا، بل - على العكس - كانت تشفق عليها. ولكن لا كولا حاليا في أوج السعادة. قالت هيلين متلطفة:

"أين ستذهبان في شهر العسل؟ هل سترحلان للخارج؟"

فاومضت عينا كولا. وسرت هيلين لأنها استطاعت أن تحمل نفسها على ابداء الاهتمام.

"كنت أريد الذهاب الى باريس. ولكن تيدي زارها، فهو يريد الذهاب الى لندن."

"لندن. يا له من مكان لشهر العسل!"

وعادت هيلين تسألها:

"وإلى أين ستذهبان؟"

فأجابت كولا:

"لندن."

ثم أردفت بسرعة، وكأنها تقرأ أفكار هيلين:

"ولكني وضعت رسم البيت بنفسي. ففي مطبخي كل الأجهزة الحديثة. سأرتاح لوجودي هناك."

"إذن سمح لك تيدي بارضاء نفسك في هذا الصدد."

فرفعت كولا ذقنها قائلة:

"طبعا، انني أرضي نفسي. إنه بيتي."

حدقت فيها هيلين قائلة:

"بيتك؟ أتعنين أنك تقومين ببنائه؟"

لم تكن كولا تتجاوز الثانية والعشرين، وبناء بيت يتطلب نفقات كبيرة، أكبر من أن يتحملها ترودي وزوجها. لذلك أردفت:

"لا بد أنك غنية."

فقالت الفتاة:

"ترك لي أبي مبلغا للدوطة ودفع ليون الباقي."

"الدوطة؟ ألا تزالون تعملون بعادة دفع الدوطة؟"

قالت كولا، محتارة:

"طبعا، إن الفتاة اليونانية لا بد أن تتكفل بالبيت. هذه تقاليدنا. إنكن في انكلترا لا تلتزمن ببيت، لأنكن تتزوجن دائما عن حب. أليس كذلك؟"

وتجاهلت هيلين السؤال لتقول:

"ولكنك أخبرتني يا كولا أنك تتزوجين عن حب."

"هذا حقيقي، ومع ذلك يجب أن أتكفل بالبيت، لأن أبي ترك لي النقود وأضاف إليها ليون لأن الاسعار ارتفعت

كثيرا، في الفترة الأخيرة، أبي وفر لي المال اللازم خشية أن أتزوج رجلا يصر على الدوطة."

"ماذا يحدث إذا... أنني أعرف أن الزيجات لا تنفصم هنا كثيرا، ولكن لنفترض أن هذا حدث هل يؤول البيت للزوج؟"

عجبت كولا، وهتفت:

"كلا... إذا انهار زواجي، لا يؤول اليه البيت طبعا يظل لي، وعلى تيدي أن يرحل عنه."

وادركت هيلين أن هذا هو السبب في قلة انفصام الزيجات في الجزيرة. فالواضح أن الرجل كان في وضع شائك. ولو أساء التصرف، يجد نفسه بلا مأوى. كان لهذا التقليد العتيق - أن توفر الفتاة البيت كدوطة - حسناته، برغم كل شيء.

"قلت إن ثمانين في المائة من الزيجات هنا، زيجات مدبرة، زيجات اتفاق، لكنها تبدو نسبة عالية جدا."

ولم تكن كولا مصغية، إذ انفرجت شفتاها عن ابتسامة، فالتفتت هيلين لترى ليون واقفا خلف مقعدها. وعقب على كلامها بفتور قائلا:

"هذا صحيح يا سيدة ستوارت. ولكن الزمن بطيء في تغيير تقاليد الشرق."

وجلس في أحد المقاعد الخالية، وهو ينظر الى حيث وقف الصغيران، ثم أردف:

"ولكن معظم زيجات الاتفاق هذه، ناجحة للغاية."

ورمقها بنظرة غريبة وفي نبراته شيء جعل هيلين تشعر بأن لكلامه معنى أعمق مما كان ظاهرا. ثم قال:

"هل أطلب لك شرابا؟ لم تهتمي بالسيدة ستوارت يا كولا.

قالت هيلين:

"شربنا، أفرغت كوبي منذ قليل."

قال:

"تأخذين شرابا آخر؟"

وأشار الى الخادم بدون انتظار جوابها، ثم سألها:

"ماذا تريدين؟"

وطلب الشراب الذي ذكرته. وجلسوا في صمت برهة، يتأملون المارة. كان معظمهم قبارصة، اذ لم يكن في المدينة أي زائرين تقريبا، في ذلك الوقت من العام. كان

بعض القبارصة يفدون في سياراتهم من نيقوسيا.

وقالت كولا:

"إنها رحلة معتادة في أصيل يوم الأحد. كانت أسر بأكملها تأتي ومعها طعامها، وتبتاع المشروبات من المقهى المقابل للمرفأ."

تنهدت هيلين عندما تذكرت أن اقامتها أوشكت على نهايتها. بقيت أسبوعا أطول مما كانت تعتزم، ولكن كولا وليون ألحا عليها في البقاء فترة أخرى حين أشارت الى الرحيل. هي وكولا أصبحتا صديقتين حميمتين، واعتادتا - كلما سنح لكولا الوقت - أن تأتيا الى المرفأ فتجلسان وتتكلمان وتنعمان بالشمس. كذلك اصطحبت كولا هيلين في جولات وكان الطفلان يرافقانها أحيانا. لكن ليون أصر في عدة مناسبات أن ينطلقا وحدهما، قائلا:

"لا يمكن أن تأخذاهما باستمرار."

ورغم أن هذا كان يثير ضيق الطفلين، ما لبثت هيلين أن اكتشفت عبثية مجادلة ليون في أي أمر.

* * *

بدأ الظلام في الهبوط، وتحول الوهج الناري على البحر الى أرجواني. جاءت هيلين وكولا والطفلان من لابيتوس في القطار. لكن ليون جاء بسيارته، فانطلقوا فيها عائدين. وشرعت هيلين وهي تجلس بجواره في المقدمة - تفكر فيما اتى به، إذ كانوا قد تركوه في حجرة المكتب منهمكا حين غادروا البيت. ثم فهمت أنه جاء خصيصا ليقلهم، عندما أخبرته أمه عن مكانهم. يا للمراعاة! ومع ذلك كان رجلا غريبا، واكتشفت هيلين هذا بعد وصولها بقليل.

كان مسلكه نحو الطفلين غريبا، مما أثار حنق هيلين. ومع ذلك، فعندما تعثر الصغير مرة وجرح ذراعيه ضمدهما ليون بنفسه. ولن تنسى دهشتها - في تلك المناسبة - ولا الشعور الذي غشيها وهي تراقبه مع الطفل. لاحت أصابعه لطيفة، وهي تعنى بالذراعين، وقد قام هو بنفسه بمسح دموع تشيبي. أما مسلك ليون نحوها هي، فكان مجاملا دائما، ولكن في فتور وعدم مبالاة، مما

اثبت دون شك ما قالته بريندا عن انه لم يؤت وقتا للنساء، اما دعوته لها لاطالة اقامتها فقد كان جزءا من التقاليد القبرصية ومع ذلك كانت صادقة... الواقع أنه كان بالغ التلهف على أن تبقى فى ضيافته مدة أطول وفي محاولتها للعثور على مبرر لذلك تصورت هيلين أنه كان مقدرا لمساعدتها في رعاية الطفلين، لأن آراتيه لم تكن قد تولت بعد العناية بهما.

كان الطريق من كيرنيا الى لابيتوس يمتد مسافة موازيا للبحر، ثم ينحرف الى التلال، متعرجا، يزداد ضيقا ووعورة وهم يرقون نحو الفيلا البيضاء الجميلة المنتصبة في ضوء بلون اللؤلؤ ولون الغسق المنسحب. وغشيت هيلين سكينة ووحشة وهي تغادر السيارة وتقف محدقة عبر السهل الساحلي الضيق الى البحر. وهرعت كولا بخفة الى داخل البيت قائلة:

"ارجو أن تأذنوا لي، فأنا أشعر ببرد."

كان الهواء حولهم معطرا وقالت فيونا وهي تتقدم بجوار هيلين:

"إنني أحب عبير الحديقة، ألا تحبينه يا سيدة ستوارت؟"

"بلي يا فيونا، أعتقد أنه رائع."

فسألتها فيونا:

"هل أنت حزينة لرحيلك؟"

واختنق صوتها وهي تضيف:

"ألا تستطيعين البقاء مدة أطول؟"

"مكثت أسبوعا آخر يا عزيزتي. ولي بيتي كما تعرفين."

قال تشيبي وهو يقبل عليهما:

"ولكنك وحيدة، وليس مستحبا أن تعيشي وحدك. لو أنني مكانك ما احببت هذا."

قالت مبتسمة:

"طبعا، ولكنني تعودت ذلك."

فسألها:

"ولكن، ماذا تفعلين؟"

فأجابت:

"أشياء كثيرة، اقرأ وأرسم قليلا."

وهتف:

"ترسمين صورا؟"

قالت:

"نعم، أحب أن أكون وحدي يا تشيبي فلا تحزن هكذا."

وأقبل ليون من الجانب الآخر للسيارة، فسألها:

"أتحبين أن تعيشي وحيدة، يا سيدة ستوارت؟"

كان يقف مطلا عليها، منتظرا - كما بدا - ردها في فضول. قالت:

"تعودت ذلك."

ولكنه كرر سؤاله، فقالت:

"نعم، أحب أن أعيش وحيدة."

وكان تعقيبه الداعي للدهشة:

"لا يبدو أنك متأكدة جدا من ذلك."

وبعد صمت بدا أنه كهرب الجو المحيط بهم، قال:

"أود أن أتحدث اليك على حدة يا سيدة ستوارت، بعد العشاء وارسال الطفلين الى الفراش."

فتساءلت، وهي لا تدري سر الشعور المرتعش الذي سرى في أعماقها:

"على حده؟ هل أجيء الى مكتبك؟"

قال:

"إذا سمحت، فلن يزعجنا أحد هناك."

كانت نبراته مقتضبة، وفي عينيه ذلك اللمعان المعدني البارد المعهود وقد أطبق فمه بقوة. وانتظر لحظة ارتقابا لأي سؤال آخر منها، فلما ظلت صامتة استدار ودخل البيت. وتبعته هيلين وهي شبه مسلوبة الوعي، لا تكاد تفطن الى أن الطفلين كانا متشبثين بيديها وهما يقفزان بجوارها.

ومع أن هيلين كانت مفعمة بالفضول، تشعر بدبيب غريب يجعل ضربات قلبها تتسارع فلم تكن مستعدة ابدا لما قاله ليون عندما دخلت حجرة مكتبه في وقت لاحق من ذلك المساء، فبعدما قدم مقعدا ودعاها للجلوس، شرع يقول بدون تمهيد، وبنبرات هادئة ولهجة الأمر الواقع:

"كنت جادا يا سيدة ستوارت، حيث قلت - في فترة سابقة اليوم - أن زيجات الاتفاق والتراضي عندنا، موفقة جدا في الغالب.

وجلس في هدوء في مواجهتها واستأنف حديثه:

"استخلصت - أثناء حديث معك منذ فترة - أنك لا تأملين في زواج ثان يقوم على الحب. أتريتني أصبت في فهمي هذا؟"

قالت متلعثمة:

"ن... نعم."
وهي غير قادرة على تذكر الحديث الذي قصده. لو أنها قالت شيئا كهذا، فلا بد أنه كان اشارة عابرة، لأن هذا ليس بالأمر الذي نقبل مناقشته مع أي شخص. اللهم إلا امرأة، وصديقة، هذا بالاضافة إلى أنها لم تأمل في زواج ثان اطلاقا.

"هكذا ظننت - ولما لم يكن ثمة احتمال لأن أشعر يوما بعاطفة عميقة لامرأة، فاني أعرض عليك مشروعا، لا تقاطعيني يا سيدة ستوارت انتظري حتى انتهي من كلامي."

تزحزح في مقعده، ومع أن عينيه لم تكونا تحيدان عن وجهها بدا أنه لا يتأملها - إذ كانت ملامحه مكفهرة مريرة ومضى مستأنفا كلامه:

"تلقيت نبأ - في الأسبوع الفائت - بأن أخي لن يبرأ من مرضه. الواقع أنه قد لا يعيش أكثر من شهر، على الأكثر."

فهتفت هيلين:

"سيصبح الطفلان يتيمين.. ما أفظع هذا!"

قال يذكرها بخشونة:

"إن للطفلين أما."

الواضح أنه كان يظنها على علم بتفصيلات تاريخ والدي الطفلين. ثم أردف:

"على أن هذا غير هام، لأنها غير ذات نفع لهما الآن، سيكون عليهما أن يقيما نهائيا معي، لا خيار في ذلك. ولقد راقبتك معهما في حذر بالغ، ومن الجلي أنهما مرتبطان بك قدر ارتباطك بهما، إزاء هذا آمل أن أستطيع اقناعك بالبقاء هنا والعناية بهما."

أطلقت زفرة طويلة:

"أهذا كل شيء؟ سأتدبر الأمر بلا شك."

وسكتت عندما نظر اليها، ثم قال بصوت ناعم:

"رجوتك ألا تقطعي حديثي."

وتصاعد الدم الى وجنتيها، فانتظر لحظة، ثم استأنف:

"أختي كما تعلمين - ستتزوج في الشهر المقبل، وعمتي وعمي سيرحلان في الوقت نفسه تقريبا. وفي انكلترا، يباح لك دخول بيت رجل - ورعاية أولاده، ولو كان يعيش أعزب. أما هنا، فهذا مستهجن - لسوء الحظ - ونحن أكثر

اهتماما بمسائل اللياقة مما في بلادك. وإذ يبدو أنه لا غنى عنك لسعادة الطفلين، فإنني أسألك الزواج مني."

أفحمتها الدهشة. هل يجري عرض اقتراح الزواج بمثل هذه الرؤية الفاترة؟ وبعد ثلاثة أسابيع من التعارف فحسب! لم يزد ليون على ما قال، وأمهلها لتستجمع شتات ذهنها. فأخذت تتقبل رويدا - وهي لا تزال مشدوهة - أن الزواج كان المخرج الوحيد له من موقفه، فما كان لامرأة في هذه البلاد أن تقيم معه دون أن تكون زوجة. وكان للخادمين - أراتيه وزوجها - بيتهما أسفل التل. حتى إذا كانا ينامان في دار ليون، تغير الموقف، فاقامة امرأة غير متزوجة في بيت رجل - مهما يكن المبرر - تعتبر في هذه البلاد مثيرة للشبهات والاستهجان.

تمالكت نفسها أخيرا، وقالت:

"أنا لا أستطيع الزواج منك، قد أبحث المجيء للعناية بتشيبي وفيونا، أما للزواج..."

والواقع أنها كانت تهتم بالطفلين كثيرا، ولا شك أنهما سيشعران بشقاء كبير اذا فارقتهما. كان الموقف سيئا من قبل... أما الآن فيجب أن يعلما بما أصاب أباهما...

وغمغمت وهي تحدجه بعينين أصبحتا الآن أكثر بريقا:

"لا أدري ماذا أقول يا سيد بيترو. إنني عاجزة حتى عن التفكير"

وأيقنت هيلين أنه رجل حكيم وماكر، عندما قال في لهجة أكثر نعومة وانصف، أنه يفهم الصراع الذي يدور في داخلها، ولا يتوقع قرارا فوريا بل يجب عليها أن تفكر في الأمر كثيرا، وتحسب حساب الايجابيات نسبة الى الطفلين واليها. أما من ناحيته في الزواج فلا ينبغي أن تخاف منه، فلن يطلب منها إلا أن تبقى عفيفة وألا تعرضه قط للهوان بسلوك ربما يوصف - ولو عن بعيد - بأنه غير لائق.

"لن يحدث ما تخشاه من هذه الناحية..."

وسكتت اذ أذهلها أن تفكيرها تحول الى صوت مسموع. وابتسم ليون لارتباكها، فاذا التغيير الذي طرأ عليه مذهل. أجل، كان وسيما.. وكان غريغوري وسيما أيضا، ولذلك طاردته النساء. أما اذا طاردن ليون، فلن تجرح مشاعرها، بل إنها لن تحفل. ولكن، ما هذا التفكير؟ لم يكن ثمة مجال لأن تتزوج منه. كلا ما كانت لتتصور الزواج مرة أخرى من

أجل الأمن والطمأنينة. ولو من أجل الطفلين. ثم إن ليون كان يحتقر النساء، بينما كرهت هي الرجال وفقدت ثقتها بهم. فكرة زواج شخصين على هذه الشاكلة تثير السخرية.

٣ - آمال برسم الانهيار

انقضى شهران على زواجهما، حين حلت معجزة الربيع على الجزيرة، واذا بأمطار الشتاء، وماء ثلوج الجبال تبدل معالم الأرض الجرداء السمراء وفي مكان برزت نباتات خضراء زاهية تكسو السهول، وأخذت الألوان تعربد على سفوح الجبال، إذ راحت الزهور البرية تتفتح سريعا. ووقفت هيلين في شرفة مخدعها تسرح النظر الحالم عبر الشريط الساحلي الضيق الى البحر الشاسع. البحر الأبيض المتوسط أزرق لازوردي متلألىء. يتدرج ويخف لونه وهو يترامى الى الأفق، ولكنه ظل - مع ذلك - قاتما لدرجة تفرقه عن زرقة السماء الصافية.

ولامست شفتي هيلين ابتسامة. إذ سمعت نداء:

"يا عمتي هيلين!"

فسارت إلى سياج الشرفة، واطلت على الحديقة، كانت فيونا تقف هناك، متطلعة بوجهها المتألق إلى أعلى، تعلق على كتفها حقيبة الكتب. وقالت:

"رجعت!"

فضحكت هيلين قائلة:

"يمكنني أن أرى ذلك... هل أنت جائعة؟"

"حتى الموت."

"تعنين إلى درجة التضور جوعا."

"أجل، اصبت، هل لدينا شيء من تلك الكعكات التي صنعتها بالأمس؟"

"عدد قليل. سأوافيك حالا بها، سأرى ماذا لدينا في العلبة."

تحولت إلى غرفة النوم، فإذا بها تلمح نفسها في المرآة، وتذكرت ما قالته ترودي بدون مجاملة، حين زارتها هيلين في الأسبوع الماضي: "أنت طراز قديم!

"لماذا التحفظ وقد تزوجت؟ إنك لن تستبقيه، وإني لأنذرك، فهؤلاء القبارصة سرعان ما يجمحون شاردين، يكفي أن

يروا وجها جميلا واحدا كي ينحرفوا، ما لم يكن لديهم في البيت ما هو أفضل."
"هل تتحدثين عن سابق اختبار؟"
"كلا طبعا، فحبيبي تاسوس مختلف، اجل، لا داعي لأن تضحكي! ولكن هذا هو السائد، إنني أحذرك، كما أقول، لأنك صديقتي. إنك حسناء يا هيلين، فلماذا الجمود؟ ثم، ما تبريرك لطول ثيابك؟ يا للسماوات، انني لا أكاد أرى ركبتيك!"
ونبهها صوت فيونا تقول:
"أين أنت يا عمتي هيلين؟"
فبادرت مجيبة:
"ها أنذا قادمة يا حبيبتي!
كانت فيونا في المطبخ، تطوف بأرجائه، وهي تجر حقيبتها على الأرض. وبادرت:
"أين الكعك؟"
"ارفعي حقيبتك، كلا، أرجو أن تعلقيها في مكانها."
وخرجت فيونا - وهي تبتسم بخبث - لتعلق حقيبتها في خزانة البهو. ثم عادت وجلست إلى مائدة المطبخ، وهي تؤرجح ساقيها، وترتقب متطلعة أن تقدم إليها هيلين ما تأكله. ووقفت هيلين تطل عليها لحظة، وهي تتذكر رد فعل الطفلة عندما حدثها ليون عن أبيها بعد وفاته. ظل وجهها الصغير الوديع جامدا في البداية، ثم انخرطت في بكاء مثير للاشفاق على صدر هيلين. أما تشيبي فزم شفتيه، محاولا ببسالة أن يكون شجاعا، ولكنه ما لبث أن انهار هو الآخر. كان هذا المشهد المفتت للقلب، والوجوم المكفهر القلق في عيني ليون فوق ما تحتمل هيلين. فكان قرارها من وحي الساعة - كما قالت لنفسها - ناجما عن انفعال عاطفي قوي مؤقت. وشعرت أنها قد تندم على الزواج، فالحياة مع هذا الأجنبي الأسمر الصارم الذي كان أسلوب حياته مختلفا عن اسلوبها وعاداتها - لا يمكن أن تكون ممتعة. أكد لها روبرت جازما أنه ما من قبرصي يستطيع أن يعيش بدون امرأة. ومع أن هذا الجانب من حياته الشخصية ما كان ليمسها قط في شيء، كانت تدرك دائما احتمال وجود هؤلاء النسوة، وما كان هذا ليساعد على الرضا وراحة البال. وبرغم التحذيرات الكثيرة - في دخيلتها - فان

هيلين سمحت لشفقتها بأن تسيطر على هواجسها، ولم تندم بعد على ذلك - وكان هذا النمط من الزواج يلائمها.. اذ هناك مجال لمشاعر أعمق، بدون ايقاظ العواطف، ومن ثم لا خطر لأن تنهار آمالها مرة أخرى.
وهتفت الصغيرة:
"يا عمتي هيلين.. اسرعي."
تقدمت هيلين الى الخزانة ضاحكة، وأخرجت الكعك، ثم سكبت لها فنجانا من الحليب، وسألتها، وفم فيونا مليء بالكعك:
"أين تشيبي، لماذا يتأخر دائما؟"
"انه مع بعض الاولاد، يستطيع أن يتكلم معهم، اما انا فلا أستطيع. من الصعب تعلم اللغة اليونانية، لكن معلمتي طيبة، تخبرني بكل الكلمات."
"وأنت تنسينها على الفور."
"أتذكر بعضا منها، لكن الحروف غريبة جدا. لماذا يقلبونها رأسا على عقب؟"
"ليست مقلوبة لكنها تختلف عن حروفنا، هذا كل ما في الامر. سوف تتعلمين اللغة قريبا."
"لكنك قلت لعمي ليون أنك لن تتعلميها أبدا."
"انا أكبر منك، والتعلم في الكبر شاق دائما، أتوقع أن أتعلم ما يكفي لاحتياجاتي، لا يهم، فمعظم الناس هنا يتكلمون الانكليزية."
نظرت هيلين نحو النافذة، إذ ظهر تشيبي عند الشرفة، ثم أقبل خلال الباب الزجاجي، وإن هي الا لحظة حتى انسابت حقيبته تتدحرج عبر الأرض المصقولة."
"ماذا تأكل فيونا؟ هل أستطيع أن أنال بعضا منه؟"
"عندما ترفع حقيبتك وتخرجها من هنا."
"علقيها نيابة عني يا فيونا."
اتسعت عينا هيلين، وهتفت:
"ماذا قلت؟"
فأجاب تشيبي وهو يجلس على أحد المقاعد العالية، منتظرا أن، يقدم له كعك وحليب:
"قلت لفيونا أن تعلق حقيبتي."
فقالت هيلين بحزم:
"خذ حقيبتك خارج المطبخ، فورا."

فأشار بسبابته الى الحقيبة وقال:
"فيونا؟"
شربت فيونا جرعة كبيرة من الحليب - وملأت فمها بالكعك ثانية، قالت:
"لن أعلق حقيبتك الزرية! علقها بنفسك! لست أدري ماذا دهاك يا تشيبي، إنك تحاول دائما التعالي واصدار الاوامر!"
وتطلعت الى هيلين في استنكار، وابتلعت ما في فمها، وأردفت تقول بفظاظة:
"طلب مني أن أنظف حذاءه، هذا الصباح."
حدقت فيه هيلين غير مصدقة، وهتفت:
"تنظفين حذاءه! هل طلبت من أختك أن تنظف حذاءك؟"
فأجاب بهدوء:
"هذا صحيح. الأخوات دائما يخدمن اخوتهم هنا. الصبيان هم ذوو القيمة، وليس على البنات سوى الشغل و.. كل شيء."
"هل لي أن أسأل، من أخبرك بكل هذا؟"
قال باستخفاف:
"الأولاد. كل أخواتهم يخدمنهم وأنا شعرت بالتفاهة حين قلت أن أختي لم تكن تخدمني، لانهم ضحكوا وقالوا إنني مخنث."
"لا أصدق أنهم استعملوا هذه الكلمة."
"كانت كلمة أخرى باليونانية، ولكنها تعني الشيء ذاته."
"مهما تكن الكلمة، فعليك أن تنظف حذاءك بنفسك. والآن، اذهب وانقل حقيبتك..."
قال محتجا:
"ولكنك لا تفهمين يا عمتي هيلين.."
"ما الذي لا تفهمه عمتك هيلين؟"

* * *

كان ليون يقف بالباب، منذ مدة، رشيقا يرتدي بدلة من التيل الأصفر الشاحب لا تشوبها شائبة. ومع أنه كان يخاطب تشيبي، فإن عينيه كانت على هيلين، تطوفان بها من قمة رأسها الى قدميها، ولأول مرة شعرت بمظهرها الكئيب.

كانت ترتدي كنزة وتنورة، كلاهما باللون البني الداكن وشدت شعرها الجميل الى الخلف باحكام، وثبتته الى مؤخرة رأسها بمشبك قبيح من لحاء السلحفاة. كانت جواربها سميكة وحذاؤها ثقيلا. وتحول انتباهه الى تشيبي، وتساءل بصوت حازم:
"وبعد؟"
كان صوته حازما. وسألت هيلين نفسها: ترى هل كان يصغي الى الحديث قبل دخوله الحجرة؟ وعاد ليون يقول للغلام:
"هل فقدت لسانك فجأة؟"
تبخر اعتداد تشيبي وتعاليه فقال مستكينا:
"لا شيء يا عمي ليون."
فالتفت ليون الي هيلين، واضطرت أن تجيب عن الطفل، قالت في لهجة مخففة ونبرة مستضحكة:
"تشيبي يتحول الى قبرصي حقيقي بسرعة. فهو يعتبر أن الأنثى أدنى منزلة."
تساءل ليون:
"أصحيح هذا؟"
فقالت فيونا:
"إنه يسخرني، ويأمرني بتنظيف حذائه."
فقالت هيلين مؤنبة:
"هذا افتراء. طلب منك فقط أن تنظفي حذاءه."
أدركت هيلين أن ليون سمع ما دار، فلم يبد دهشة ما، وقال لابن أخيه بهدوء:
"أنزل عن هذا المقعد وانقل حقيبتك!"
ولمسها بطرف حذائه. وأطاع تشيبي على الفور، ولكنه رمق أخته بنظرة محنقة، وهي ترميه بنظرة منتصرة، وقال حين عاد، وهو لا يوجه خطابه لأحد معين:
"كل الاولاد في المدرسة يكلفون أخواتهم بأداء أشياء لهم."
ثم أردف في شبه تحد لعمه:
"كانت عمتي كولا تؤدي لك أعمالا... كنت تكلفها دائما بأن تؤدي لك أعمالا، وتأتيك بأشياء."
أعقب هذا الانفجار الصغير صمت رهيب، ثم أمر ليون ابن أخيه بالذهاب الى حجرته. وبادرت هيلين، وهي تقدم الحليب لتشيبي:

"لا ٠٠٠ إنه لم يقصد أن يكون فظا ٠"

"تشيبي ٠٠٠ افعل ما أقول ٠"

كان الصوت منخفضا متوعدا ، حتى أن هيلين نفسها ارتجفت قليلا لسماعه ٠ وانحسر الزهو عن محيا فيونا ، ودست خلسة قطعتين من الكعك في جيبها ، وانزلقت من المقعد فاتجهت الى الباب ، تابعة أخيها ٠

ولاحظت هيلين تصرفها ، وعندما نظرت الى ليون ، ادركت انه هو الآخر عرف ما اعتزمته فيونا ، بيد أنه تركها - لدهشة هيلين - تغادر الغرفة ٠ وقال وهو يخطو نحو باب الشرفة:

"ما الذي أوحى اليك بأن المرأة أدنى مكانة في قبرص ؟"

قالت:

"إنها حقيقة ، اليس كذلك ؟"

قال وهو يتأملها - مرة أخرى - بفضول ، وقد تسلطت نظراته على وجهها:

"الأمر يتوقف على تأويلك سلوك الرجل نحو المرأة ٠"

وبدا لهيلين أنه يتفحص كل زاوية ، وكل خط في قسماتها ، فسارت نحو المائدة ورفعت الطبق والكوب عنها وحملتهما الى المجلى ٠ بينما استأنف ليون حديثه قائلا:

"المرأة في بلادكم مساوية للرجل ، ولكن يبدو أنها في اكتساب هذه المساواة ، فقدت شيئا أثمن منها بكثير ٠"

التفتت د لين ونظرت إليه متسائلة:

"ما الذي فقد ٥ ؟"

فقال:

"إنها كثيرا ما لا تلقى احتراما ولا مجاملة ٠ بل الأكثر من هذا ، إنها لم تعد تعتبر امرأة ٠ وأعني بذلك لم تعد تحظى باهتمام الرجل ٠ لم تعد تلقى دلالا ٠"

فاضت عيناها الزرقاوان بالعجب ٠ ما كانت هذه بكلمات رجل يكره النساء ٠ وقالت:

"لم أعلم أبدا أن الرجال الشرقيين يدللون زوجاتهم ٠"

"إذن ، لم يصدقك من أخبرك ٠ اننا ندلل نسائنا ونعتز بهن ٠ وأنا أتكلم الآن بصفة عامة طبعا ، ولكن لكل تعميم شواذ دائما ٠ بعض الرجال هنا لا يعاملون نساءهم برقة ، ولكن هؤلاء أقلية ٠٠٠ أؤكد لك ٠"

"لست أدري كيف تقول هذا ٠ فمما رأيت استخلص أن

النساء هنا مجرد خادمات ، مستعبدات تقريبا ٠"

تملكه غضب حقيقي ، إذ انبعث صوته بحدة وقال:

"هراء ! إنما تشتغل النساء في البيت لأن هذا طبيعي لهن ، بينما يأتي الرجال بالمال ٠"

قالت وهي تضع الكوب تحت ماء الصنبور:

"النساء يشتغلن في الحقول ، كثيرا ما شاهدتهن ٠"

وقف في المدخل ، واحدى يديه على فخذه ، وقد بدا أنه يهتم بالمنظر ، ثم قال:

"هذا صحيح ، ولكن الرجال يعملون الى جوارهن ٠"

كان وضع الشمس وصفاء زرقة البحر والسماء يجعلان للضوء طابعا يهفو بالمشاعر ، لا سيما وهو يترامى على شعر ليون الأشيب ، فيكسبه بريق الفضة ٠ وأشاحت هيلين تأخذ منشفة لتجفف الكوب ٠ بينما استرسل ليون:

"النساء يستمتعن بالعمل في الحقول ٠٠٠ ويستمرئن الهواء الطلق ٠"

والتفت يتأملها وهي تقف عبر أصابع قدميها لتضع الكوب على رف مرتفع فانحسر ثوبها ٠ وعندما استدارت رأته يحدق ٠٠٠ وغير الموضوع ، متسائلا فجأة:

"ألست بحاجة الى نقود يا هيلين ؟"

سرى الدم سريعا الى وجنتيها ، ولكن عينيها عكستا دهشة واهنة ، وقالت:

"كلا ، لدي الكثير ٠"

كان سخيا ، ولا بد أنه يعرف بعدم حاجتها ٠ فهز كتفيه ، وقد قرأ ما عكسته ملامحها ، وقال:

"إنما رأيت أن أسأل فحسب ٠ ما عليك إلا أن تطلبي ، ولن تجديني ضنينا ٠"

اتسعت حدقتاها ٠ أتراه يومىء الى أن عليها شراء بعض الملابس ، فما كانت تعتزم ذلك: مرت مناسبات عديدة - في الفترة الأخيرة - وكانت عيناه السوداوان تحدجانها بنظرة تسلبها الهدوء من نفسها ، وتذكرها - لسبب من الاسباب - بما قاله روبرت من أنه ليس بوسع أي قبرصي أن يعيش بدون امرأة ٠ كان ليون يخرج كل مساء ٠

وكانت لهيلين آراؤها فيما كان يفعل ٠ بيد أنه كان - في أوقات أخرى - يمكث في البيت أسبوعا بأكمله ٠ إنها

لم تجذبه حتى الآن، ولكنها كانت تتساءل: كيف كان يفكر عقله هو. وانتهت الى أنه لا فرق لدى هؤلاء الشرقيين الشهوانيين بين امرأة وأخرى... وقد يأتي يوم... وأقصت هيلين الفكرة من ذهنها. كانت الحياة مرضية، وهناك الطفلان وبيت جميل، فلم يكن من الحكمة تعقيد حياتها بالتعرض لايقاظ الرغبات في زوجها. كلا، كانت خلوا من الجاذبية له. وعقدت العزم على أن تظل كذلك.

سألته في نبرة استعطاف واهنة:

"لن تبقي تشيبي في غرفته طويلا؟ إنه جديد على كل هذا، وهو يصغي للصبية الآخرين. إنه في السن التي تجعله يريد الشعور بقيمته."

وسارت نحوه وابتعد ليون، بدون أن يحاول دعوتها الى الشرفة، فابتسمت وتقدمت نحوه وعندما وقف الى جوارها، أدركت أن رأسها لا يكاد يبلغ كتفه.

* * *

قال:

"إنك بالغة اللين معهما."

ورغم حدة لهجته شعرت أنه لم يكن ينتقد طريقتها مع الطفلين وقالت:

"لا يزالان صغيرين.. وتعرضا لصدمة قاسية."

"لكنهما تكيفا مع ظروفهما في شكل جيد، وبسرعة."

وتقوست شفتاه المزمومتان في ابتسامة، وغاب عن عينيه الوميض البارد، وأردف قائلا:

"إنك طيبة معهما يا هيلين. كلا، لن أترك الصبي طويلا، ولكنه يجب أن يتعلم أنه لا يستطيع أن يعامل أخته كأنها أدنى منه، يجب أن يدرك أننا نتوقع منه أن يرعاها."

ورمقته بسرعة، ما أغرب هذا الرجل! هل يمكن أن يكون عدوا للمرأة حقا؟ من المؤكد أن تجربة ،حية أثرت عليه، لولا ذلك ما قال وهو يعرض عليها الزواج أنه لن يهتم بأية امرأة اهتماما عميقا.

تذكرت هيلين مسلكه نحوها منذ زواجهما. كان مجاملا، ودودا ولو أنه مرات كان فاترا على نحو ملحوظ ولكن لم يحدث أن تحدث إليها بخشونة مرة أو وجه اليها أمرا، أو أبدى

نحوها ترفعا وتعاليا. وفي الواقع، لم يكن هناك ما يدعوه لذلك. سألها أن تتزوجه وقبلت. كان من حقها أن تتوقع أن يعاملها على قدم المساواة. مع ذلك فان تلك الشراسة كانت موجودة دائما، لأنها تؤلف جزءا دائما من مظهره. فتحس بوجودها تماما في بعض الأوقات، ولا تكاد تحس بها أحيانا أخرى. وتطلعت اليه ثانية، ملاحظة فكه الصارم التكوين واختلاجة عضلة خفيفة في جانب منه. الابتسامة خبت، والفم أطبق مزموما في ذلك الخط الذي كان يوحي بالخشونة. الخشونة التي كانت تشوب وسامة ملامحه. ترى كيف يبدو حين يكون غاضبا؟ كيف يبدو عندما يمتحن صبره أو يواجه تحديا؟ وتركت هيلين عينيها تتحولان الى فمه ثانية؟ فشعرت بقشعريرة غريبة تسري في بدنها، ووجدت نفسها تتمنى في حرارة ألا تتعرض لمناسبة تواجهه فيها. اذ اقتنعت لتوها أنه يستطيع أن يكون قاسيا حقا. وانتبه الى اهتمامها، فاستدار واطل عليها من فوق، بنظرة متسائلة فبادرت تقول بارتباك عجبت منه:

"متى يستطيع تشيبي مغادرة غرفته؟"

"قبيل موعد الشاي - سأرى."

"قبيل موعد الشاي؟ إن الساعة الثانية والنصف الآن."

كان اليوم المدرسي هنا يبدأ في الثامنة صباحا، وينتهي في الثانية بعد الظهر. وأردفت:

"ما أحسب أنك ستبقيه هناك ساعتين أخريين؟"

فقال:

"كلا، ليس لساعتين، ولكنه سيبقى هناك فترة. لن يصاب بأذى."

كانت نبراته هادئة، ولكن هيلين أدركت أنه لن يقبل مزيدا من الجدل في هذا الأمر، فلاذت بالصمت، وهي تطل على فيونا في الحديقة. كانت تلاعب كلبا ضالا، استقر لديهم أخيرا. ففي قبرص كثيرة هي الكلاب الضالة، تعيش في المدينة والريف على السواء، وكانت هيلين تشعر بالحيرة... فكيف تحصل على قوتها... عندما استقر هذا الكلب الذهبي اللون في حديقتهم، توقعت هيلين أن يطرده ليون أو يأمر باعدامه. ولكنه - على النقيض - أمر له بالطعام ومكان للنوم.

تحرك ليون، وانحنى قليلا على السياج. يشاهد أيضا

ابنة أخيه مع الكلب. وطاف بخاطر هيلين مرة أخرى: أجل، إنه رجل غريب في عدة نواح، إنه لغز بسمات متناقضة في شخصيته، فهو أحيانا صلب لا يلين - لاسيما مع الطفلين - ومع ذلك قد يشمل بعطفه هذا الحيوان الشريد. كذلك كان مسلكه نحو النساء عجيبا، فمع اهتمامه بهن - لسبب واحد فقط - لم يكن يسمح بمجرد إشارة ازدراء أن تشوب صوته إذا تحدث عنهن. كان لطيفا مع أمه وسخيا مع أخته. ولكن نبراته - في المناسبة الوحيدة التي ذكر فيها أم الطفلين - كانت خشنة جدا - حتى خيل لهيلين أنه قادر على القتل. وعادت تنظر اليه جانبيا، وتتمنى مرة أخرى ألا تحدث مناسبة تضطر فيها الى اغضابه.

غير أن احتكاكا بين إرادتهما حدث في ذلك المساء بالذات فشعرت هيلين - للمرة الأولى - بوطأة شخصيته المتسلطة. كانت قد دبرت أن تزور ترودي مرة في الأسبوع، ومعنى هذا أن تكون خارج البيت حين يعود الطفلان من المدرسة، وشعرت بأن واجبها أن تذكر ذلك لليون، فقالت:

"سيكونان بخير مع آراتيه لحوالي ساعة فقط، فسوف أعود قبل الثالثة."

وكان ليون يقضي المساء في البيت، وقد جلسا في الشرفة يحتسيان الشاي، ويتجاذبان أطراف الحديث. فقال:

"طبعا، في أي وقت تذهبين؟"

فقالت:

"أغادر البيت حوالي الساعة التاسعة."

كانت صادفت روبرت في القرية، في اليوم السابق، فذكر أنه ذاهب الى نيقوسيا كذلك، وعرض عليها.. بطبيعة الظروف - أن يقلها فقبلت.

لمست جبين ليون لمسة خفيفة من العبوس، وقال:

"التاسعة؟ إذا بكرت قليلا أستطيع أن أصطحبك."

فابتسمت قائلة:

"لا عليك يا ليون... ذلك الشاب الذي صادفته على السفينة، روبرت، أخبرتك عنه، إنه ذاهب الى المدينة، وسيقلني."

ازداد عبوس ليون وقال:

"أفضل ألا تقبلي. سأنضم الى القافلة، إذ يجب أن أكون في المكتب مبكرا جدا، في الغد. ولكن لا أدري ما يدعوك

لعدم الذهاب معي."

"ولكن القافلة ترحل في السابعة والنصف، وسأكون هناك مبكرة عما ينبغي."

"تستطيعين أن تمكثي في المكتب ساعة أو نحو هذا."

كانت في صوته نبرة متصلبة واضحة. وكانت هيلين لا تزال موغرة الصدر من تعقيبه الهادئ بأنه كان يفضل ألا تقبل أن يقلها روبرت. إنها تأبى أن يملي عليها ما يجب وما لا يجب أن تفعله. فقالت:

"سأقبل دعوة روبرت، إذا لم تمانع، فهذا أيسر بكثير."

"بل أمانع يا هيلين."

كان صوته لا يزال هادئا، ولكن لهجته أصبحت أكثر حدة، قليلا واستأنف قائلا:

"آراتيه ستكون هنا، وبوسعها أن تعنى بذهاب الطفلين الى المدرسة."

فقالت:

"ولكني لا أريد الخروج مبكرة."

فكان رده:

"إذن أخشى أن تضطري لأن تستقلي الحافلة، أو أطلب لك سيارة اجرة اذا كنت تفضلينها."

قالت بصوت هادئ، رغم أن لونها بات شاحبا:

"سأذهب مع روبرت، وهذا - كما قلت - أيسر. من السخف أن أفكر في سيارة أجرة بينما أستطيع قبول الدعوة."

وضع ليون قدح القهوة على المنضدة، واستلقى في مقعده، وحدق فيها، ثم قال بصوت ناعم:

"هيلين... إما أن تذهبي الى المدينة في احدى الطرق التي ذكرتها، أو لا تذهبين اطلاقا."

ومرت لحظة وهي تحدق بنظرات جامدة، لكن انفعالها كان في تصاعد، وما لبثت أن قالت في حدة زادت على ما كانت تعتزم:

"سوف اقبل دعوة روبرت... ويؤسفني ان اخالف رغباتك يا ليون، لكني لا أقبل الجبر. تذكر أنني انكليزية."

فقال:

"انت زوجتي، وستفعلين ما أقول."

أخبرت روبرت، وسوف يأتي ليصطحبني."

بدا مندهشا وهتف:

"هل هو قادم الى هنا؟ هل أخبرته حقا بأن يأتي الى منزلي ليصطحبك؟"

ولم تكن هيلين ترى أي عيب في قدوم روبرت الى البيت ليصطحبها، لكنها عندما رأت وجه ليون، شعرت أن هذا ما كان ينبغي ان يحصل. كان من العجيب أن روبرت لم ينصحها، ويبدو أنه يعرف الكثير عن نمط الحياة هنا. لهذا أردفت:

"بوسعي أن أتصل به هاتفيا - إذا كان هذا ما تفضله - فأخبره أن ينتظرني في القرية."

"ستتصلين به فعلا، لالغاء التدبير. أوضحت لك - في البداية - انني أتوقع منك أن تتصرفي باتزان، والا تعرضيني لأي شكل من الهوان. وأنت الآن تسعين لتصرف يعرضني للسخرية."

"هذا غباء! لماذا يعرضك قبولي دعوة روبرت للسخرية؟"

"هذه قرية صغيرة... وفي أي حال، فكل امرىء في قبرص يشغل نفسه بشؤون جاره. ولست راغبا أن يقرن اسم زوجتي باسم ذلك الانكليزي."

لم يكن من الممكن اغفال التصلب في صوته، ورغم خفوت ضوء المصباح المثبت في الحائط، اكتسى وجهه بتعبير فظ وعدواني. كانت هيلين تكره فكرة الخضوع لقراره لكنها اقتنعت - في الوقت ذاته - بأن أي مزيد من الجدل لن يكون عقيما فحسب، بل سيؤدي الى إذلالها، كان ليون يفرض ارادته دائما... وليس في موقف كهذا فحسب ونظرت اليه مدركة مرة أخرى ذلك الشعور الغريب من المضض الذي خبرته في مناسبات سابقة عديدة. وقادها هذا الشعور الى الحذر، فلم تعد تلح في معارضة رغبته. وقالت:

"إذا كان هذا شعورك إزاء الأمر، فسأفعل ما تقول، والغي التدبير."

انحسر الدم عن وجهها وكانت تدرك أنها شاحبة تحت الضوء الخافت. وتجاهلت نظرات ليون بدون اهتمام، ثم سألها:

"هل ستأتين معي؟"

فأومأت برأسها. وإذ ذاك أردف:

"سيكون علينا أن ننهض مبكرين. إنني آسف لهذا، ولكن لا حيلة في الامر. لدي يوم حافل في الغد، والانطلاق

باكرا سيعينني على انجاز عملي."

* * *

كان هواء الصباح خفيفا صحوا، والشمس تطل بأشعة زاهية في سماء خالية من السحب. وكانت السيارة مرسيدس كبيرة سوداء.

استرخت هيلين في مقعدها، وقد أدهشها أنها ستستمتع بالرحلة حقا. وما أن غادر كيرينيا حتى انضما الى القافلة. كانت هناك مركبات عديدة من سيارات النقل، والحافلات، والسيارات الخاصة، وبعد تسجيل رقم سيارتهما، انطلقا في حراسة سيارات جيب يقودها جنود الأمم المتحدة بزيهم الأزرق. وكانت هناك لافتة ضخمة تنبىء المسافرين بأن الاتراك يريدون "حريتهم، وأمنهم وحقوقهم". السلام يسود كل شيء، وفيما عدا اللافتات التي تظهر من آن لآخر، والتحذيرات التي تحرم التقاط الصور، لم يكن ما يشير الى أن الطريق تحت أي رقابة. ونظرت هيلين الى وجه زوجها، فإذا به هادىء مطمئن لا ينم عن أي كراهية لاضطراره ملازمة الطابور الطويل، ممنوعا من أن يسبق ما أمامه.

وتمتمت مأخوذة بالجمال الذي حولها: "من المؤسف أن تكون هناك مشكلات". كانت قبرص حقا "جزيرة فينوس الأثيرة بالسحر" ولا مكان للفرقة فيها. وعقب ليون بهدوء:

إنها ستحل نفسها، فكلنا قبارصة، وليس هناك ما يمنعنا من العيش في سلام."

وتذكرت هيلين أن مشاعره تتجه الى الاتراك، فعجبت لغرابة شخصية هذا الرجل - مرة أخرى... هذا الذي تزوجته ولا يزال شبه غريب عنها. وما لبثت السيارة أن مضت خلال سلسلة الجبال الشمالية التي كونتها هزات أرضية شديدة، هدمت وشوهت أحواض الطبقات الجيرية الاصلية، وكومتها في كتل رمادية ضخمة، تعلوها حصون سانت هيلاريون، وبوفافينتو، والقنـر (كانتارا)، وكانت سفوح الجبال مكسوة بأشجار السرو والزيتون، بينما القرية منها تزداد بحشد من الألوان، ألهبها بهاء وتفتح ربيع قبرص.

وفي سهل ميسوريا العظيم، كانت الارض الجرداء

العارية التي مرت بها هيلين في طريقها الى كيرينيا - في شهر نوفمبر / تشرين الثاني - قد تحولت الى طوفان من الخضرة والقمح والشعير، بينما كانت مجموعة كبيرة من الاقحوان ترفع رؤوسها الحمراء الزاهية فوق القمح - من آن لآخر - لتكسر تواتر لونه.

عند لافتة على جانب الطريق تقول: "مرحبا بكم الى القطاع الحر"، تفرقت القافلة - واتخذت كل مركبة وجهتها - وزاد ليون من سرعته، متجاوزا حميرا عابرة مثقلة بالأحمال، ونسوة فلاحات شدت إلى أكتافهن سلالا كبيرة، وبعض دراجات بخارية متباعدة. وخلفت السيارة وراءها الماعز على جانب الجبل، والرعاة يعنون بقطعان الأغنام البنية ذات الوبر الطويل.

سألها ليون عندما بلغا مكتبه:

"ماذا ستفعلين؟"

وأوقف السيارة، والتفت نحوها، مضيفا:

"هل الوقت مبكر لتذهبي الى صديقتك؟"

فقالت:

"نعم أرى أن أمكث هنا فترة... إذا لم يضايقك وجودي."

وابتسم لدهشتها، وقال يذكرها:

"أنا اقترحت عليك أن تمكثي."

ودار حول السيارة الى ناحيتها وزادها دهشة بأن فتح الباب لها قائلا:

"سنتناول القهوة."

فقالت:

"لا داعي للقهوة، فأنا اعرف أنك تود الشروع في العمل."

ولكنه ألح. وكان الرجل الذي أقل هيلين والطفلين من ليماسول موجودا - واسمه ثيوفيلوس - فابتسم حين قدمه ليون لهيلين، وطلب منها أن تناديه ثيو. وخرج الرجل بأمر من ليون ثم عاد بعد قليل بالقهوة على صينية. قدحان صغيران، مع كل منهما كوب ماء مثلج لا بد منه. وجلست هيلين الى جانب الطاولة وليون في الجانب الآخر. أخذ يتأملها بنظرات غريبة، وهي تحتسي قهوتها. وكانت ترتدي ثوبا قطنيا، داكنا وخاليا من أي زينة، مما أبرز شحوب وجنتيها. قال ليون بما بدا لهيلين أنه لمسة حذر:

"هل ستتسوقين وأنت هنا؟"

وساءلت نفسها ثانية، أتراها كانت ايماءة الى أن تشتري لنفسها بعض الملابس. قالت:

"لا أحتاج إلى شيء."

ثم أسرعت تضيف:

"الطفلان بحاجة الى جوارب، وربما اشتريها لهما اذا تجولت مع ترودي في المدينة."

لم يعقب على ذلك. وبعد لحظات أزاح صينية الشراب عن مكتبه، وتناول ملفا من أحد الأدراج. لكنه نظر الى هيلين - قبل أن يبدأ في فحص محتوياته - ومد يده فتناول صحيفة، وهم بأن يناولها إياها، واذا به ينتبه الى أنها باليونانية، فوضعها جانبا على الفور، ثم ناولها صحيفتها المفضلة بالانكليزية سايبرس ميل.

بعد ساعة ونصف أقلها ثيو بالسيارة الى مسكن ترودي، على أن يعود اليها في الرابعة والنصف، كما أخبرها ليون وهي تغادر المكتب حيث اعترضت قائلة:

"والطفلان؟ أستطيع العودة قبل ذلك في القطار."

فقال:

"لن يصيبهما سوء. أرجو لك يوما لطيفا، ومتعي نفسك."

كان الشارع حيث تسكن ترودي محفوفا بالفيلات البيضاء والبيوت ذات الطابق الواحد، والمباني السكنية، وأشجار السرو والنخيل تنمو في كثير من الحدائق، تعلو وتطل فوق أشجار البرتقال واليوسفي ذات الأوراق اللامعة.

كل الحدائق متألقة بالزهور، في كل مكان، والنباتات المتسلقة تتعانق من الشرفات، تلتف حول أعمدة الحديد المطروق، وتنساب الى الارض.

قالت ترودي معتذرة، إذ خفت الى الباب تستقبل هيلين:

"اضطررت لاغلاق مصاريع النوافذ الخشبية، فالشمس تنال من الوان كل شيء."

قالت هيلين:

"لم أتعود بعد أن أغلق المصاريع لأصد الشمس. فهذا يبدو غلطا لي."

"أعرف هذا. كنت مثلك في البداية، فالشمس قليلة في انكلترا، حتى لا نفكر في اغلاق المصاريع بوجهها."

وتقدمتها الى الحجرة المطلة على الواجهة، وكانت آنئذ في الناحية الظليلة، ومصاريع النوافذ مفتوحة. وقالت:

"سنجلس هنا... إنها ليست في أناقة حجرة الجلوس، ولكنها أطيب هواء في هذا الوقت من النهار."

قالت هيلين وهي تجلس بجوار النافذة:

"إنني أراها أنيقة، وأحب مسكنك هذا."

فقالت ترودي:

"مع أنني لا أتوقع أن يكون شيئا يذكر بالقياس لبيتك."

ودفع شيء في صوتها بحمرة خفيفة الى وجه هيلين. كانت تلك زيارتها الرابعة لمسكن ترودي، ولم تدعها بعد الى لابيتوس.

قالت ترودي:

"ماذا تودين أن تشربي؟"

فأجابت هيلين:

"سأتناول شراب البرتقال إذا سمحت."

ودار في خلدها وهي تراقب ترودي اذ أقبلت بالشراب بعد لحظات أنها رشيقة وجميلة. وقالت لنفسها وهي تطلق لذهنها العنان ليعود الى تلك الأيام حين كانت هي وترودي دون العشرين: "أنا أيضا كنت كذلك". كان الفتيان ينجذبون اليهما، فكان بوسعهما أن يختارا. بالنسبة الى هيلين، كان لقاؤها بغريغوري حبا من أول نظرة، وأقبلا يدخران بلهفة، وتزوجا بعد عامين. وبدا لهيلين - وهي تستعيد الماضي - أن حماس زوجها سرعان ما فتر، ولكنهما انساقا الى علاقة مريحة، فكانت هيلين سعيدة، إن لم نقل منتشية. وكثيرا ما قيل لها أن هذه الفترة لن تدوم، ورغم أنها شعرت بالتعاسة بعد ضياعها، فقد راضت نفسها، عندما أنجبت طفلهما، اتسعت خبرتها واستمتعت بذلك الانجاز الرائع الذي لا تشعر به المرأة إلا مع الأمومة. وعندما فقدت هيلين الطفل، تطلعت الى زوجها ليواسيها أملا في أن يقترب منها ثانية - كما كان في البداية - لكن علاقتهما ظلت على حالها، مريحة لكنها غير مثيرة.

أما ترودي فكانت أكثر توفيقا، إذ ظلت وتاسوس متحابين بقدر ما كانا في بداية الزواج. ولم يكن تاسوس يذهب الى أي مكان بدونها بدافع الوفاء. وما كان يشاهد قط في صحبة زملائه الذين يجلسون في

مقهى - يلعبون الورق أو النرد. كان كل ما يريده أن يعود إلى بيته وزوجته، ويمكث معها.

* * *

قالت ترودي وهي تستقر في مواجهتها بجوار النافذة:

"حدثيني عن ليون."

واضطربت عيناها البنيتان قليلا وهي تضيف في شيء من التردد:

"لم تقولي لي عن زواجكما إلا القليل جدا. بل لم تقولي شيئا في الواقع."

وكان هذا حقيقيا، وأرسلت هيلين نظراتها ساهمة الى الطريق ومرت بضع لحظات قبل أن تتكلم. ثم قالت مرتبكة:

"لا بد لي أن أخبرك في وقت ما، فلا بأس أن يكون الآن. تزوجنا أنا وليون من أجل الطفلين."

اختلجت عينا ترودي وهي تتأملها، وقالت:

"الطفلان، تشيبي وفيونا؟"

"أخبرتك أن أباهما مات، واضطر ليون أن يكفلهما. وسألني أن أبقى في قبرص وأرعاهما. من الواضح أنه ما كان لي أن أعيش في بيته بدون... بدون زواج... ولذلك..."

وهزت كتفيها، وسرحت نظراتها الى الشارع ثانية. وانتظرت ترودي، فاضطرت هيلين الى مواصلة حديثها:

"هذا هو السبب أنني لم أقل لك الكثير عنه. إنه ليس... ذلك النوع من الزواج."

فهتفت ترودي:

"هذا النوع؟"

قالت هيلين:

"أعني... ليس طبيعيا."

واتسعت حدقتا ترودي دهشة، وقالت:

"ماذا تقولين؟"

استطاعت هيلين أخيرا - وهي ما تزال تجد عناء - أن توضح لها فلما واصلت صديقتها الحملقة فيها غير مصدقة، شابت صوتها رنة تحد وهي تقول:

"كنت تعرفين دائما أنني لن أتزوج ثانية عن حب... كثيرا ما أخبرتك بهذا."

فقالت ترودي مصححة:
"كنت تقولين دائما أنك لن تتزوجي اطلاقا، لذلك أرى أنني معذورة إذا استنتجت - بعدما تزوجت - أن زواجك عن حب... ويجب القول أنني تصورت في الامر كله شيئا مستغربا، لانك كنت مغلقة تماما".
وتناولت كوبها بين أصابعها، وهي تحدق في هيلين مفكرة، ثم أردفت:
"ولذلك لا تعنين بمظهرك؟ أنا صريحة، بل وقحة اذا شئت، لكنك كنت دائما جذابة جدا. الا تريدين أن يهواك ليون؟"
قالت هيلين:
"كلا في الواقع لا أزال على رأيي حين مات غريغوري "لن أدع قلبي يتورط ثانية". هذا الزواج يناسبني على ما هو عليه، وإني جادة اذ أقول لا أريد أن أسترعي انتباه ليون أبدا
ضحكت ترودي فجأة بشيء من الحرج وقالت:
"كلا، هذا غير ممكن! إنك تقرأين عن مثل هذه الزيجات، ولكنها لا يمكن أن تحدث في الحياة الواقعية".
وقالت هيلين:
"هذا الزواج حدث، أنا وليون أكثر قليلا من غريبين".
فصاحت ترودي:
"الم... أبدا؟ كلا، لا أصدق، ليس مع قبرصي. إنه... لا يستطيع أن يعيش هكذا. ما من أحد منهم يستطيع".
فهزت هيلين كتفها قائلة:
"أعرف كل شيء عن حياتهم... لهم علاقات غرامية".
تساءلت ترودي:
"الا تهتمين؟"
هزت هيلين كتفيها ثانية وقالت:
"لماذا أهتم؟ الزواج - كما قلت - عملية تجارية بحتة، لم يحدث إلا لتفادي الأقاويل فحسب، كلا، لا أبالي بما يفعله ليون. ليس لي شأن بحياته الخاصة".
وظلت أسارير ترودي توحي بأنها غير مصدقة، وقالت:
"ولكن... أتعتقدين حقا يا هيلين، أنك تستطيعين الاستمرار هكذا طيلة عمرك؟"
فأجابتها:
"ولم لا؟"

قالت ترودي باقتناع ثابت:
"مستحيل... ليس مع قبرصي. انه لا يستطيع!"
"ماذا تعنين بأنه لا يستطيع؟"
"إنه لا يستطيع أن يعيش معك في البيت ولا يكون... لا يكون طبيعيا".
"قلت لك أن له علاقات غرامية".
فسألتها:
"ما أدراك بهذا؟"
قالت:
"إنه يخرج كل ليلة".
فقالت صديقتها:
"معظم الرجال هنا يخرجون كل ليلة، يقضون وقتهم في المشارب والمنتديات والمطاعم، ليس هناك ما يجزم بأنه مع نساء".
قالت هيلين:
"متقد أنه يقضيها مع نساء".
هزت ترودي رأسها في حيرة لعدم الاكتراث البادي في لهجة هيلين وسألتها:
"ألست بالية حقا؟"
وندت من هيلين زفرة دلت عن نفاذ صبر، وقالت:
"أخبرتك أنني لا أجد سببا للمبالاة. فلا أشعر نحوه بأي عاطفة. إنك تعلمين شعوري نحو الرجال يا ترودي. لن أسمح لنفسي بالتورط عاطفيا".
"سأقول لك هذا... سواء كانت لديك نية التورط عاطفيا أو لم تكن، فلن تستمري بقية حياتك تعيشين في هذا الوضع غير الطبيعي".
قالت هيلين:
"لا أرى ما يدعو لغير ذلك".
ولكن صديقتها هزت رأسها قائلة:
"لن يلبث ليون أن... أن..."
"وجدني، وهو - بجانب هذا - لا يجدني جذابة".
تأملتها ترودي لحظة، ملاحظة ثيابها، وشحوب خديها، وتصفيف شعرها المتقشف، ثم سألتها:
"كيف تعلمين أنه لا يراك جذابة؟"
فقالت:

"إنه لا يكاد ينظر الي·"

وقطبت وهي تقول هذا، متذكرة تلك المناسبات التي كان يتأملها فيها· ثم عادت تقول:

"لقد وعد!"

وساءلت نفسها، أتراها كانت تحاول اقناع نفسها؟

اضطرت ترودي الى الضحك قائلة:

"وعد؟ أتصدقين حقا أنه سيحافظ على وعده؟"

قالت هيلين:

"أظن إنه موضع ثقة·"

وطاف بوجه صديقتها ظل من الرثاء· ثم قالت:

"ما أقل ما تعرفين· ولو كنت مكانك ما اتكلت كثيرا على وعد كهذا، هؤلاء الرجال الشرقيون على حالهم··· أو كما يجعلهم المناخ··· أنا متزوجة من أحدهم، وأعرف··· يؤسفني أن أبدد أوهامك، لكنك ترتكبين أكبر أخطاء عمرك إذا ظننت أنك ستبقين زوجك بعيدا إلى ما لا نهاية، ما هكذا خلق الرجال· كما أن هذا ليس طبيعيا له أو لك· كلا يا هيلين، صدقيني - عندما يقرر ليون أن ينتهك هذا الوعد فسينتهكه بدون أي وخز من ضمير·"

"ولكن مشاعري··· يجب أن يراعيها·"

"كلا يا هيلين، وحق السماء! إنك لست ساذجة· وعندما يؤاتيه المزاج ل··· ل···"

وسكتت وهي تهز كتفيها في ضيق، ولكنها استرسلت بعد لحظة:

"عندما يحين الوقت، لن يتذكر أنه أعطى وعدا، فيجب أن تعدي نفسك·"

ودهشت هيلين إذ وجدت نفسها ترتعد، وقالت في يأس:

"ليون له ملاهيه، ولن يرغبني أبدا·"

قالت ترودي ضاحكة:

"ليس لديك دليل حقيقي على أن له ملاهيه··· كما تسمينها، في أية حال، من الأنسب أن يجد ما يريده في متناول يديه، وقد لا يشعر دائما برغبة في الخروج·"

* * *

اشتد تدافع الدم الى وجه هيلين، وقالت:

"ارجوك يا ترودي! أرى أن نغير الموضوع·"

وهذا ما فعلناه، وانقضت بقية النهار على نحو هادئ·
وبعد تناول الغذاء في الشرفة، ذهبنا إلى المدينة·

قالت ترودي وهي توقف سيارتها في شارع جانبي:

"كثير من المتاجر تغلق أبوابها من الساعة الواحدة والنصف الى الثالثة ولكن بعضها تستمر مفتوحة، وسوف نشتري ما نريد·"

اشترت هيلين جوارب الطفلين فقط، بينما اهتمت ترودي بشراء الأغذية· وعندما فرغتا من التسوق، ذهبتا إلى مقهى طلبا للمرطبات· وارتفعت عشرات العيون عن ورق اللعب والنرد لتتأمل الاثنتين باهتمام· فقالت هيلين:

"اكره هذه المقاهي، لماذا يحملقون هكذا، حتى ليظن أي شخص أنهم لم يروا نساء في حياتهم؟"

فتلفتت ترودي حولها قائلة:

"هل لأن نساءهم لا يرتدن هذه الأماكن، توقعت أن يكونوا ألفوا مجيئنا نحن، الاجنبيات، فما أكثرنا هنا· تعالي نخرج!"

جلستا في الشرفة تتسليان باحتساء الأوزو وتناول مزة من الزيتون والخيار ومكعبات صغيرة من الكبد والجبن· وتذكرت هيلين عناءها الأول في تعود الأطعمة المحلية· وسألتها ترودي في سياق الحديث:

"هل ذهبت إلى ماري مونتي؟"

التمعت عينا هيلين وقالت:

"كلا، ولكن روبرت دعاني للذهاب الى هناك معه·"

فتساءلت ترودي في فضول:

"روبرت؟ آه··· الشاب الانكليزي الذي قابلته على السفينة، هل يذهب إلى هناك؟ إنهم يعدون مآكل مدهشة··· من أحسن ما تناولت· هل ستذهبين مع روبرت؟"

"ربما·· في احدى الأمسيات، فالوحدة تقسو أحيانا، بعد أن أسلم الطفلين للفراش·"

فسألتها ترودي:

"هل تستطيعين أن تتركيهما؟"

أجابت هيلين:

"ستمكث آراتيه معهما·"

"اتقولين أن ليون يكون خارج البيت دائما؟"

"ليس دائما، ولكنه يخرج في معظم الامسيات."

قالت ترودي:

"سيكون عليك أن تتأنقي قليلا، إذا خرجت مع هذا الروبرت."

أومأت عيناها بلا اهتمام، فهزت هيلين كتفيها وقالت غير مكترثة:

"ليس لدي ما أتأنق به، لذلك ربما لا أذهب معه."

كان قد بقي - حين عادتا الى المسكن - نصف ساعة قبل مجيء ثيو ليقل هيلين، فأخذتها ترودي الى مخدعها لتريها بعض ثياب جديدة ابتاعتها في زيارتها الأخيرة لمصر. وقالت وهي تخرج بعض الفساتين والتايورات:

"مازلت أظن أن الملابس الانكليزية أفضل ما رأيت، ولكن ما رأيك في هذه؟"

وتأملت هيلين الثياب في تقدير، مشيدة بحسن ذوق ترودي.

قالت ترودي معترفة:

"لكني أخطأت في هذا."

وقدمت ثوبا من التيل الأزرق. كان قصيرا جدا، فتحة العنق واسعة. واسترسلت قائلة:

"إنه لا يناسبني اطلاقا. رأيته في نافذة المتجر. وأدركت أنه مقاسي فاشتريته بدون أن أجربه. تاسوس يكرهه."

فقالت هيلين محتجة وهي تتناوله:

"لكنه جميل. أنا متأكدة أنه يناسبك."

ونشرته على جسم ترودي، ثم اضطرت لأن تعترف بأن صديقتها على حق وقالت:

"إنه اللون... درجة الزرقة لا تناسبك."

قالت ترودي:

"إنه أقرب الى اللون الملائم لك. جربيه؟"

وفعلت هيلين، وسارت بحركة تلقائية الى المرآة. لا شك في ذلك، فقد تغير مظهرها بأكمله. وقالت وهي تضع الثوب على السرير:

"نعم، إنه لوني."

فقالت ترودي:

"بوسعك أن تأخذيه، فهو لا يصلح لي."

"هذا كرم منك يا ترودي، ولكني لا أحلم بأخذه وهو جديد تماما."

تناولته ترودي وعادت تقيسه على هيلين قائلة:

"ما كنت لأقدمه لك لو لم يكن كذلك، إنه يناسبك - يجب أن تأخذيه."

فهزت هيلين رأسها ولكن بضعف. كان الثوب بسيطا، ولكنه حسن الصنع، وأضفى عليها جمالا بالتأكيد. وشرعت تقول:

"لا توجد مناسبة لأرتديه."

وأسرعت ترودي معترضة:

"تستطيعين ارتداءه في أي وقت... ما رأيك في ارتدائه حين تخرجين مع صديقك روبرت إلى ماريه مونت؟"

قالت:

"الواقع... إنني لم أقرر نهائيا الذهاب."

كانت تقف على درجات السلم، متأبطة صندوق الثوب، حين جاء ثيو بالسيارة... وقالت ترودي:

"سأراك الاسبوع القادم، أرجو أن تأتي!"

فقالت هيلين:

"نعم، سآتي، وأشكر لك الثوب، ليتك تدعيني أدفع ثمنه."

"أرجوك، لا تعودي لهذا الجدل ثانية."

فضحكت هيلين... وما هي الا لحظة، حتى كانت تلوح بيدها لصديقتها من السيارة. وصاحت ترودي:

"مع السلامة."

ثم أردفت بلهجة غامضة غريبة:

"وأتمنى لك أحسن الحظ!"

٤ - المرأة الأخرى

الهواء مفعم بعبير زهر البرتقال. وامتدت أشعة الغروب الذهبية الى مرتفعات جبال كيرينيا الوعرة فتوهجت بجمرات النار المحتضرة، والسحب البنفسجية تمخر عباب السماء فوق البحر الشاسع. سرعان ما سقطت الشمس وأقبل الظلام وبدأ ضياء القمر يلمس المويجات الصغيرة، فيحيطها، بتألق فضي.

وقف ليون مستندا الى مدخل الشرفة يسرح البصر في البحر، وألقى برأسه الاسمر الى الوراء. لحقت به هيلين، بعدما أسلمت الطفلين للفراش، فتزحزح جانبا. وبرغم الظلال التي تكسو وجهه، أحست هيلين أنه يبتسم حين مرت خارجة الى الشرفة. وجلسا برهة، ثم مد ليون يده فأنار المكان وسألها:

"ماذا تشربين؟"

فقالت:

"لا شيء، شكرا."

لكنه دخل البيت، وعاد بابريق بلوري وكوبين. ولم تجادل هيلين حين ناولها كوبا، ولكنها سألته وهو يجلس:

"ألن تخرج؟"

قال وهو يحدق في عينيها فتسارع خفقات قلبها:

"لن أخرج الليلة.. لماذا؟"

لم يخرج في المساء لمدة اسبوع تقريبا. وأدركت سر اضطراب قلبها، ولماذا كان بداخلها خوف ما. فمنذ أكدت لها ترودي أن ليون سوف ينكث بوعده، أخذت تراقبه وهي تحاول أن تسبر غور كل نظرة، وتأمل في نهاية كل نهار أن يخرج.

تمتمت ملاطفة بدون أن تقصد:

"إنها أمسية جميلة. من الحرام تمضيتها في البيت."

فقال:

"نحن لسنا في البيت."

"ولكنك كنت في المكتب طيلة النهار."

"أجل، وكان الجو حارا رطبا، إذ اختل جهاز التكييف... افرغي من شرابك وسنخرج لنتمشى."

كانت الكوب تمس شفتيها، واذا جسمها يرتعد فجأة - لم يكن هذا ما أرادت.. فعادت تقول:

"أكيد أنك تفضل أن تكون خارج البيت مع... مع أصدقائك."

فقال:

"لو صح هذا ما كنت هنا."

فزادت كلماته من اضطرابها، وتعجلت افراغ كوبها، وشعرت برأسها يدور. وبحركة تلقائية، رفعت يدها إليه قائلة:

"إن بي صداعا."

فقال:

"أنا آسف."

كانت لهجة هادئة في مجاملتها، ولكن نبرة قلق داخلتها. ونهض من مقعده قائلا:

"الهواء المنعش سيشفيك. سأخبرك ماذا نفعل، سننطلق في السيارة حتى الشاطىء، ثم نتمشى هناك، وسرعان ما سيزيل النسيم صداعك."

قالت:

"الطفلان... لا أستطيع تركهما."

فقال:

"سأطلب إلى آراتيه أن تمكث حتى نعود."

قالت في الحاح قانط:

"يحسن أن ألجأ للفراش."

كلا، لم تكن تريد أن تذهب للفراش، فاستدركت:

"لعلك على صواب، وان هواء البحر سيفيدني."

فسألها وهو يتفرس في وجهها الشاحب:

"هل أنت بخير؟ هل تشعرين بشيء غير الصداع؟"

اصطنعت هيلين ابتسامة ونهضت، فاقتربت منه ثم ابتعدت بسرعة قائلة:

"كلا، لا سوء بي يا ليون. أما رأسي... فاظنني شربت بسرعة."

قال:

"فعلا، ولست متعودة، كان عليك أن تحترسي."
وما أن استقرا في السيارة، حتى شعرت هيلين بمزيد من الطمأنينة لحظة على الأقل!
أوقف ليون السيارة على جانب الطريق، وتركها غير موصدة الأبواب، فقالت وهما يسيران الى الشاطىء:
"أتراها ستكون في أمان؟"
فاجاب في هدوء:
"الناس هنا لا يسرقون... ولا أعرف أن أحدا يمر من هنا، في أية حال."
وكان على حق، لم يكن على الشاطىء سواهما...
القمر بزغ من وراء السحب، فارسل خيوطه الفضية عبر البحر. لم يكن هناك صوت، ولا وسوسة الأمواج وهي تترامى الى الشاطىء. لم تر هيلين بحرا بهدوء البحر الابيض المتوسط. ونسيت مخاوفها وهما يتمشيان وليون يتكلم من آن لآخر بصوت خافت، وكثيرا ما يخلد للصمت. فوجدت هيلين نفسها تهمس:
"يا للسكينة!"
كانت انكلترا بعيدة جدا، فبدت مأساة حياتها غير واقعية. لو استطاعت أن تبقي زوجها على مسافة منها، لظلت حياتها سهلة يسيرة ناعمة. من المؤكد أنه ما كان يجدها جذابة.. ولكن عينيه عادتا تحدجانها في اللحظة نفسها، فتطلعت على مضض تقابل نظراته، وسألها:
"هل تحسن رأسك الآن؟"
قالت:
"نعم يا ليون، شكرا."
كانت كلماتها متكلفة، وبدأت تشعر بحرج في حضوره، وأسفت لانسياقها لذلك الحديث مع ترودي، فكانت مخاوفها - حتى ذلك الحين - مجرد همسات يسهل عليها استبعادها، أما الآن، فقد أصبحت تلح عليها، وتساءلت: كم سينقضي قبل أن تعود ثقتها في وعد ليون؟ على أنها - في هذه اللحظة - عرفت الطمأنينة وتحرر ذهنها من الخوف. كان السير على الشاطىء الساكن متعة، حتى مع ليون... طالما يلزم الصمت. ما كانت شواغلها تعاودها إلا حين يتكلم، فلم تكن تدري ما سيقوله بصوته الخافت ونبرة القلق التي تشوبه.
قال:

"هناك مقعد على مسافة، نستطيع أن نجلس إذا شئت."
وما لبثا أن بلغاه، وفوجئت بإحدى التصرفات البسيطة التي تدهشها عندما أخرج منديله ونفض الغبار عن المكان حيث ستجلس. وما من شك أن الحفاوة والمجاملة فن لدى القبارصة. ووجدت هيلين في هذا ما يشرح الصدر، فلم تتعرف الى مثل هذه الرعاية من غريغوري أبدا. لذلك ابتسمت لتصرف ليون وشكرته في اكبار. وانساب من وراء الشريط الساحلي الضيق شذى زهور البرتقال، فأخذت هيلين تنهل الهواء.
قال ليون:
"ليتك تشمين العبير حيث البساتين الكبيرة."
ثم جلس على المقعد المجاور لها. وفجأة قال، بما بدا لهيلين أنه دافع وقتي:
"سأذهب الى فاماغوستا الاسبوع القادم، وأمكث يومين تقريبا فستجري تعديلات رئيسية أريد أن أشرف عليها. هل تحبين المجيء معي؟"
هتفت:
"أنا؟"
كان روبرت وكثيرون غيره حدثوها عن وقت اليناع في فاماغوستا حتى القبارصة كانوا يغمضون أعينهم وهم يصفونه، وتمنت هيلين أن تذهب يوما... لكن فكرة الذهاب مع ليون لم تخطر لها مطلقا لذلك أردفت:
"لست أدري."
وتوقعت أنهما سينزلان في فندق، فاسترسلت:
"لا يمكن ترك الطفلين... أراتيه تحب أن تنام في بيتها. هكذا أخبرتني مرارا."
فقال مبتسما:
"هذا من أجل زوجها. يستطيع أن يمكث في بيتنا أثناء غيابنا. سيرضي هذا أراتيه. كلا، لا ينبغي أن تعلق على الطفلين... لن يتأثرا بغيابنا يومين كما أنني أشعر أنك بحاجة للترويح، كنت قلقا عليك في الفترة الأخيرة."

* * *

اتجهت عيناها اليه.. إذن فقد لاحظ، ولكنه لم يدرك الحقيقة. كان مهتما بها، فرأى أن الترويح يفيدها.

لكنها تذكرت الجانب الآخر من طبيعته. تذكرت اقتناعها السابق أنه يستطيع أن يكون قاسيا !

انبعث صوته خفيفا ولكنه ملح:

"مما تخافين يا هيلين؟"

وعجبت، أيكون أحس بارتباكها وهو ينتظر اجابتها؟ وارتجفت، ثم اغتصبت ضحكة مرتعشة، وقالت:

"خائفة؟ ما الذي أخافني؟"

فرد برفق:

"هذا ما أسألك عنه. ولا تجيبين."

هزت رأسها، وسرحت بصرها في البحر تفكر في جواب مقنع... فلو أنه أدرك الحقيقة...

قالت كاذبة، متحاشية عينيه:

"لست خائفة من شيء."

فقال بهدوئه:

"إذن، لا يوجد ما يبرر عدم صحبتي الى فاماغوستا. سأعطيك بعض النقود لتشتري لنفسك ثيابا."

فهتفت قبل أن تفكر:

"آه، كلا."

ثم أردفت بمزيد من الهدوء:

"لدي الكثير يا ليون."

فتساءل:

"ما لديك؟ إذن فلا بد أنها متروكة في خزانتك."

أذهلها رده، ثم تذكرت أنه زوجها رغم كل شيء... من الغريب أنها لم تفكر في نفسها أبدا كزوجة ولذلك لم تكن مستعدة لأن يكلمها على هذا النحو الطبيعي في الظروف العادية. وقالت:

"الثياب الداكنة أكثر ملائمة لمن لديها أطفال تعنى بهم."

وهي تحاول أن تجد ردا مقنعا.

ارتفع حاجباه قليلا وهو يقول:

"هذه فكرة عفا عليها الزمن!"

اجابته:

"إنني افضل الثياب الداكنة."

توارى القمر وراء السحب العابرة، لكنها أحست بوجهه يتخذ المظهر الخشن، كما تغير صوته وهو يقول:

"أنا أفضل الثياب الزاهية. سأرى ما عندك، فإذا لم يرق

لي تشترين بعض ثياب جميلة يا هيلين، ألوانها تتمشى مع عينيك وتلقي ظلا على خديك الشاحبين."

وأخذ قلبها يخفق بشدة. لكن نبرة مبحوحة سرت الى صوته، وارتجفت وهي تقول لنفسها: لا يمكن أن أكون جذابة له. لكن هذا اليقين خالطه العلم بأن النساء سواء لدى أولئك الشرقيين المشبوبي الرغبة. فقالت محتجة:

"طبعا، يحق لي ارتداء ما أحب!"

قال:

"بل ترتدين ما يسر زوجك."

وسكت عندما أحس بضيقها، وسرت في صوته رنة تلطف وهو يضيف:

"سآخذك الى فندق الملك جورج - وهو خير ما في فاماغوستا - وأود أن أفخر بك- سنلتقي ببعض زملاء عمل لي."

إذن كان هذا هو السبب! واسترخى جسمها، وندت زفرة ارتياح ولامت نفسها على مخاوفها. فما كان في نبرات صوته الرقيقة ما ينم عن رغبة - ما أغباها!- وكل هذا لأنها أخذت كلمات ترودي بجدية بالغة وبدأ ذهنها يميل لفكرة قضاء أيام قلائل في فاماغوستا، على سبيل التغيير - كما قال ليون. بالرغم من تعلقها بالطفلين كانا مسؤولية ثقيلة وكانا يفيضان عبثا في بعض الاوقات. وجهد العناية بهما تغيير كامل عن الحياة التي تعودتها، وغالبا ما شعرت بارهاق ولعل هذا زاد اهمالها بمظهرها - قالت:

"متى سيكون سفرنا؟"

وأدهشها أنها تنتظر اجابة بلهفة - فقال:

"حوالي نهاية الاسبوع المقبل... ربما يوم الجمعة، لنعود يوم الاحد أو الاثنين، حسب تقدم العمل."

فتمتمت في قلق:

"أتظن أن تشيبي وفيونا سيكونان بخير؟ لن يرتاحا لفكرة غيابنا عن البيت."

"بالتأكيد سيكونان بخير. لن يحدث شيء مع أراتيه ونيكوس. أما من حيث عدم ارتياحهما لغيابنا، فيجب أن يتعوداه، إذ قد اصطحبك مرة أخرى الى بافوس. فإنني أتدبر شراء أرض هناك."

قالت مقترحة:

"يمكننا أن نصطحبهما معنا."

كانت تدرك أن الطفلين سيحبان ذلك، ولدهشتها قال موافقا:

"سنفعل يوما... سوف نحظى - في وقت لاحق - بعطلة للترويح، كأسرة."

اكفهر وجه هيلين للحظة عابرة... كانت كلما رأت أسرة تتنزه، أو تقضي عطلة، أو حتى تتسوق، شعرت بالفراغ الفظيع الذي عانت منه بعدما فقدت زوجها، وابنها، لذلك تحمست لفكرة ليون، وقالت وهي غير واعية للضراعة في صوتها:

"ألا نستطيع أخذهما هذه المرة؟"

ولكن ليون قال بحزم قاطع:

"ليس في هذه المرة يا عزيزتي، فهذه الرحلة تغيير لرتابة حياتك كما قلت، ولن يكون ثمة تغيير ولا راحة اذا اصطحبنا هذين الوغدين."

ولم تجادل اذ كانت تعرف هذه اللهجة. وارتاحت في مقعدها تسرح بصرها في البحر، شذى الزهور البرية ينساب على انسام الجبل، ليمتزج بعبير زهور البرتقال القوي - وتمتمت:

"لا وقت كالربيع!"

فقال ليون:

"له بهجة خاصة، لكنه لسوء الحظ قصير جدا، بينما الصيف طويل أما شتاؤنا - اذا جاز تسميته كذلك - فهو محدود كما تعرفين."

في اقل من اربعة أشهر رأت تعاقب الخريف والشتاء، وهاهو ذا الربيع. وستكون بقية العام صيفا بشمس متألقة وسماوات صاحية.

بدأت نسمة باردة تهب من البحر، فالتفت ليون متسائلا:

"أنعود للسيارة؟"

كان الوقت مبكرا بعد، وبرغم زهد هيلين السابق في الخروج، لم تعد ترغب في تعجيل العودة.. والتفتت اليه مبتسمة وقالت:

"هل نستطيع البقاء فترة أخرى؟"

فقال:

"ما لم تكوني تشعرين ببرد."

ثم أردف بحزم فجائي:

"كلا... إنك تتعرضين للبرد. هيا، لنتخذ طريقنا عائدين للسيارة.."

ولكن في طريق العودة، جنح بالسيارة الى مقهى أبيض غير مرتفع تألقت فيه أضواء ملونة، وشرفته الطويلة الواسعة تقابل البحر. وكان بعض الانكليز يجلسون الى المائدة التي قادها اليها. وسرعان ما ابتسموا مرحبين وتحرك شاب بخفة ليحضر مقعدين.

"ما أطيب أن نراك يا ليون، استنتجنا جميعا أنك في سبات منذ زواجك."

كان المتكلم شديد السمرة، ملتحيا، وادركت هيلين - حتى قبل أن يخبرها ليون - أنه فنان.. فقد قال ليون وهو يضحك:

"لم يلق فيل تكريما بعد، ولكنه سيحظى به... فهو موفق، وسوف يضع اسم لابيتوس على الخريطة يوما."

فصاح شاب آخر في استياء:

"إن اسم لابيتوس على الخريطة.."

وتحول الى هيلين قائلا:

"لدينا هنا مجموعة صغيرة لطيفة من الفنانين، من المحتمل أنك تعرفين؟"

فابتسمت هيلين وقالت:

"سمعت بهم... قابلت أحدهم على السفينة عند قدومي."

"أجل، روبرت! إنه كثيرا ما يتكلم عنك. إنه موفق الآن. وصوره في كل متاجر الهدايا بالجزيرة. نعم، إنه والله ذكرك... ويكن لك اعجابا كبيرا."

شاعت في وجه هيلين ابتسامة سعيدة، وتحولت تلقائيا نحو زوجها فاذا الابتسامة على شفتيها ترى ما الذي فعلته. كان وجهه مكفهرا ومتجهما. وأسرعت تشيح بصرها، بينما أحضر الساقي المبتسم الشراب ورفعت رأسها بتعاسة، وقد حيرها مسلك زوجها، ورد فعلها إزاءه. غضب وتجهم كثيرا في الماضي، فلماذا تأخذ ما طرأ عليه جديا هذه المرة؟ وسرعان ما أقبل آخرون، وحصل التعارف، وسيطر المرح على الجميع. وكانت النسوة يرشقن هيلين بنظرات جانبية، فادركت أنهن يعجبن بما أعجب ليون بيترو - ومما زاد حيرتها أنه مشهور بكراهية النساء، لكنه اذا أحب أن يقع في غرام امرأة فاتنة لا يقوى على مقاومتها... كانت هيلين تقرأ أفكارهن بدون عناء، ثم فاجأت عيني زوجها ترمقانها بانتقاد، فخيل

اليها أنه يخجل من عدم اهتمامها بأناقتها. لماذا أحضرها لتلتقي بأصدقائه؟ ولمحته يبتسم فجأة، فاذا قلبها - بلا مبرر تعرفه - يقفز منتعشا، وعادت طيلة الساعة التالية مغتبطة كأي شخص ممن حولها، وقد نسيت مظهرها وأخذت تحادث فيل عن أعماله الفنية.

قال بعدما أخبرها عن أعمال روبرت:

"يقول روبرت إنك ترسمين!"

قالت وهي تتورد عندما سكت كل الحاضرين منشوقين:

"رسومي ليست جيدة، فلم ألتحق بمدرسة للفن، ولا تلقيت أية ارشادات.."

قال جيري مؤكدا:

"الفنان الصادق يرسم بوحي من قلبه.."

هو الآخر يقيم في لابيتوس ويعمل في نيقوسيا. وإقامته في الجزيرة مهددة، إذ كان على مخدومه أن يطلب ترخيصا له بالعمل كل ستة أشهر. وكان موقنا بأن طلبه سيرفض ذات يوم. وعاد يقول:

"لا بد أن ترينا انتاجك يا هيلين، فكل منا يهتم بالآخر هنا."

قال ليون رافعا كوبه الى شفتيه:

"أنا لم أر شيئا منه بعد. أظن زوجتي فنانة خجول."

فقالت بضحكة صغيرة:

"لم أرسم شيئا منذ مجيئي، لم تسنح لي الظروف."

فهز فيل اصبعه لها محذرا وهو يقول:

"هل يشغلك طيلة الوقت؟ هؤلاء القبارصة ممتازون في استبقاء زوجاتهم تحت..."

وأدار أصبعه نحو الأرض، ففتح ليون فمه ليحتج، ثم رأى أن يضحك واسترسل فيل:

"لا تخدعي يا هيلين، فزوجك يختلف تماما عنا معشر المعوزين، يستطيع أن يحيطك بدستة من الخدم إذا شاء."

وعقبت هيلين:

"ولكني لن أجد ما أفعله عندئذ ولن ألبث أن أضجر."

ولمحت أسارير احدى النساء، فقرأت أفكارها مرة أخرى:

"أتضجرين؟ ومعك زوج مثل ليون؟"

وتناولت كوبها تتأمله وهي تتبين بصر المرأة مثبتا على وجه ليون الأسمر. كانت المرأة تغبطها، فمن تكون؟ أحست هيلين - وهي تتعرف عليها - ببغضاء خفية تتوارى

تحت ابتسامتها، ولكنها استبعدت الفكرة حتى عندما فوجئت بنذير سوء ينبعث من عينيها. أما الآن، فمن تكون؟ وأخلدت للصمت تصغي محاولة أن تعرف شيئا عنها، وكان كل ما استخلصت أن المرأة سمسارة عقار في نيقوسيا. على أنها - في وقت لاحق - علمت مزيدا، فاكتشفت سر عداوة بولا الظاهرة لها.

* * *

انفض القوم، وبدأت السيارة تنطلق. وذهب ليون إلى سيارته، متوقعا أن تتبعه هيلين. لكن بولا هي التي تبعته، بينما تلكأت هيلين على الدرجات تراقبهما لعلهما كانا يتكلمان في الأعمال. لكن فيل جذب كمها قائلا:

"ربما لا يكون من اللياقة أن أقول. لا تطمئني الى هذه... كانت وليون.. لنقل صديقين على الاقل، وبرغم كل الشائعات أنه لا يفكر في الزواج كانت تأمل في أن تصبح يوما السيدة بيترو. ولا داعي لوصف شعورها حين سمعت أنه تزوج سواها."

وترك كمها - إذ التفت ليون متوقعا أن يراها قريبة منه - ثم أردف:

"أعرف أن هذا لا يعنيني، وأنك ربما تظنينني أتكلم فيما لا يخصني، لكنك لطيفة، وهي امرأة معدومة الضمير، وإن كانت ذات جاذبية للرجال... أعني بعض الرجال."

ودفعها لتواصل الهبوط، وهو يقول:

"يحسن أن تنطلقي، فليون ينتظر. ولكن... احذري بولا مكسويل!"

* * *

أجل أضفى عليها الثوب جمالا. وابتعدت هيلين عن المرآة لتتملى شكلها. كانت ذراعاها عاريتين، وكشف صدر

الثوب عن نحرها الجميل ولمع شعرها الاشقر متهدلا فوق كتفيها في موجات غير مكتملة. لكن الثوب كان قصيرا، فظهر حسن قوامها. وكان حذاؤها من الجلد الازرق اللين مثبتا بحزام مزخرف داكن اللون. ووضعت هيلين شالها على كتفيها، ثم تناولت حقيبتها المسائية، وخرجت وأخذت تهبط التل نحو القرية، ولم تبتعد كثيرا قبل أن تقف الى جوارها سيارة روبرت.

قال روبرت:

"في الموعد تماما.. ألست بنتا شاطرة؟"

فسألته وهي تستريح في جلستها:

"كم يبعد هذا المكان؟"

قال وهو يتجاوز انحناء الطريق، ويزيد السرعة:

"ليس بعيدا جدا. ألم تذهبي اليه بعد؟ كنت أظن أن ليون اصطحبك الى ماريه مونت، فكل شخص يذهب الى هناك. كل الانكليز يجتمعون هناك. وفي أماكن أخرى طبعا، لكن هذا المكان بالذات مفضل للانكليز، وفي يوم السبت سهرة عظيمة. لكم يسرني أنك استطعت المجيء.."

قالت ورنة قلق تسري بدون قصد الى صوتها:

"يجب أن نعود في الساعة الحادية عشرة على الأكثر. سيعود ليون حوالي الحادية عشرة والنصف."

فقال:

"سنعود، فلا تخافي."

وصمت لحظة في فضول:

"ما الذي جعلك تتصلين بي هاتفيا؟ تصورت أنك لا تريدين أية علاقة بي، بعدما رفضت دعوتي لأقلك الى المدينة ذلك الاسبوع."

امتقع وجهها وقالت:

"أوضحت لك أن ليون لم يرتح للفكرة."

فعاد يسأل:

"والآن؟.. لماذا اتصلت بي؟"

كانا منطلقين على طريق الشاطىء، والبحر يلتمع تحت ضوء القمر وتذكرت هيلين تلك الامسية حين جلست مع ليون على مقعد هناك، ثم اصطحبها الى المقهى... والتقت ببولا مكسويل. وفي اليوم التالي زارت هيلين ترودي وخرجتا معا لتشتري هيلين ثيابا لرحلة فاماغوستا، واستقلتا الحافلة،

ثم سارتا قليلا وأثناء مرورهما بالهيلتون، ابصرت هيلين بولا في سيارة ليون وهي تتجه الى الفناء الخارجي. ثم دخلت بولا وليون الفندق. لعلهما جاءا للغذاء وكان رد الفعل المباشر لوخزة الألم أن تساءلت هيلين: "لماذا تهتم؟ ألم تكن تعرف أن لزوجها علاقات بنساء؟ أليس هذا هو ما أراده؟ أن يرضي نفسه لئلا يطالبها بشيء؟"

ولكن الامر كان مختلفا والنسوة مجهولات لها. أما أن تلتقي باحداهن، ثم تراها مع ليون، ولم تستطع أن تشهق خشية أن تسألها ترودي. ظلت طيلة الاصيل تشعر بتعاسة لم يكن لها مبرر، حتى إذا وافاها زوجها في النهاية ليصحبها، اضطرت لاغتصاب الابتسام وتجاهل أن بولا كانت - قبل ساعات قليلة - في السيارة، تجلس في المقعد نفسه.

وتساءلت: "بأي حق أعترض؟" لكنها لم تكن تعترض، فما كانت تعبأ.

قالت أخيرا، تجيب عن تساؤل روبرت:

"إنما شعرت برغبة في أمسية خارج الدار. فالجلوس فيها وحيدة يثير الملل."

قال:

"ألا يمكث ليون في البيت أبدا؟"

وبدون أن يمهلها لتجيب، أردف:

"هذا عيب الرجال هنا. كلهم يخرجون - كل مساء - ليجلسوا في المقاهي يتحدثون مع أصدقائهم الرجال. جو الاسرة المعهود في انكلترا شيء لن تعرفيه هنا. ولكن، هكذا أنتن يا نساء، تقعن في هوى الرجل الاسمر المغازل - لماذا يا إلهي، لماذا ولدت بشعر كهذا؟"

واضطرت هيلين للضحك، وظلت تضحك طيلة الامسية، متظاهرة بالمرح وهي تشعر طيلة الوقت بشيء مؤلم ينغز قلبها. كان في دخيلتها فراغ غريب، عرفته فيما مضى، ولكنها شعرت به لأول مرة منذ مجيئها الى قبرص.

سرها أن حان الوقت للانصراف، وتمنت - وهما يمضيان في الطريق - لو أنها لم تأت. وفي منتصف الطريق تقريبا، شعرت برجة، وهتف روبرت:

"يااللعنة! شيء خرق اطار عجلة."

اضطرب قلبها وقالت:

"هل يستغرق اصلاحها طويلا؟"

فقال:
"لا أصلحها، بل أبدل الاطار."

خرجا وفحصا الاطار، روبرت بصبر نافذ وهيلين بجزع -لو وصل ليون الى البيت قبلها... لماذا تخاف؟... وأراتيه مع الطفلين. كان العمل في الظلام مربكا، وروبرت يلقى عناء كبيرا، فراح يسب من آن لآخر وهيلين تقف بأعصاب متوترة وخفقات قلبها تتزايد كلما مرت لحظة. ونظرت في ساعة السيارة، فإذا بها تشير للحادية عشر وخمس وعشرين دقيقة.

قالت والسيارة تتسلق الدرب الصخري المؤدي الى البيت أخيرا:

"سأهبط هنا، قف يا روبرت."

فقال:

"لن أتركك هنا في الظلام، في هذا الوقت من الليل... الآن حدث الضرر، وإذا قدر أن ينشب شجار، فسيحدث سواء نقلتك حتى البيت أو لم أنقلك، وإن كنت لا أعتقد أن من حقه أن يشكو، ما دام يسهر خارج البيت دائما."

ومضى بها - برغم رجائها الملح - حتى باب البيت. فاذا ليون يقف على قمة الدرجات، ووجهه - برغم العتمة - يحمل تعبيرا قاتلا.

قال روبرت وقد بدأت تصعد الدرجات:

"طاب ليلك يا هيلين."

والتفتت لترد التحية، فاذا صوتها مختنق حتى شعرت أنه لا يمكن أن يكون سمعها. وأفسح لها ليون لتمر، بدون كلمة، حتى إذا صارا في البهو، التفتت وفتحت فمها لتوضح ما جرى لعجلة السيارة ولكن الكلمات انحشرت في حلقها لفرط الخوف. لماذا تخاف هكذا؟ وبأي حق وقف يرمقها وقد بدا متأهبا لأن يقتلها. أخيرا، تكلم بصوت خافت، فسألها أين كانت...

قالت:

"لقد ذهبنا الى... الى ماريه مونت... وعطبت احدى العجلات..."

وأفلت الدثار من أصابعها المرتجفة فسقط، ووقفت وهي ترتدي الثوب الذي أعطتها إياه ترودي. وهم ليون أن يعلق على ايضاحها لكنه سكت وعيناه الحادتان تلمان بها، وتتأملان بدقة ذراعيها العاريتين، نحرها المكشوف، شعرها الذهبي الفاتن الذي أفلت بفعل الريح أثناء انتظارها

في الطريق. كانت وجنتاها عابقتين وشفتاها منفرجتين في قوس ناعم رقيق. وهبطت نظراته الى ذيل ثوبها وتوقفتا. فلما رفعهما أخيرا الى وجهها ثانية، كان في أغوارهما القاتمة شيء أفزعها أكثر مما افزعتها أساريره القاتلة حين غادرت السيارة وحاولت أن تتخلص من الخوف الذي سد حلقها، وأن تتكلم، لكنها - بدلا من ذلك - انحنت فالتقطت دثارها. لكنه أخذه وطوح به الى مقعد. وشهقت متلفتة حولها وكأنها تبحث عن مهرب، هامسة:

"يا إلهي، إنه ليس في طور انساني."

وهتفت بصوت مختنق، وهي تسائل نفسها أكان الذعر في عينيها ظاهرا كما كان في صوتها:

"ليون، إن... إن لي حقا في الخروج."

قطع عليها الحديث بصوت ناعم:

"هل تتركين الطفلين وحدهما في البيت؟"

ونسيت ذعرها في لهفتها على الطفلين وقالت:

"ليسا وحيدين... قلت لآراتيه... لا بد أنها مكثت..."

قال:

"انصرفت آراتيه في موعدها المعتاد... وهي تحسبك في البيت."

وبدت نظراتها حائرة، وهي تقول:

"سألتها أن تمكث... ما كنت لأغادرهما وحيدين أبدا وإنك لتعلم."

"الواضح أن آراتيه أساءت فهم ما أبلغتها... إنك تعرفين جدا صعوبة فهمها للانكليزية."

قالت هيلين حائرة:

"بدا أنها فهمت... كيف علمت بانصرافها في موعدها المعتاد؟"

قال:

"عدت الى البيت في الساعة التاسعة. وكان كوخها مضاء حين مررت به، ورأيتها فيه."

وسكتت لحظة، واشتبكت نظراتها بنظراته ثم استأنفت:

"عندما لم أجدك هنا، كان طبيعيا أن أتساءل عما جرى. كان الطفلان مستيقظين، لكنهما لم يستطيعا أن يخبراني أين كنت، فذهبت الى آراتيه، ولم تكن لديها هي الاخرى فكرة عن مكانك."

شيء واحد علق في ذهنها: عاد ليون في التاسعة. لماذا عاد مبكرا بعدما أخبرها أنه سيتأخر؟ اعتقدت أنه كان في نيقوسيا يقضي السهرة مع بولا. ولكن هل يحتمل أنه فضل البيت؟ وبدافع غريزي تقدمت منه، وحدقت في وجهه بتساؤل وقالت:

"لو عرفت أنك ستعود مبكرا ليون، لما خرجت."

بادر قائلا:

"هذا واضح."

وعادت عيناه تطوفان بقوامها الجميل، ثم عاد الوميض المتأجج الى أعماقهما، وسألها بخشونة:

"كم مرة تفعلين هذا؟"

أسرعت تقول:

"هذه أول مرة.."

"لا تكذبي! لا تقفي هكذا وتكذبي علي! كم مرة خرجت مع هذا الرجل؟"

عادت ترتجف، ولكنها جاهدت ليظل صوتها ثابتا، وقالت:

"إنها المرة الاولى. في أية حال من حقي أن أخرج."

قال:

"هل من حقك أن تخرجي مع رجال؟"

وبرغم خوفها، ارتفعت ذقنها بشمم وقالت:

"رجال؟ انما ذهبت مع روبرت لأن... لأن...."

لم تجد كلمات لتخبره بأنها ظنته مع بولا؟ ولكنها قالت:

"لأن بقائي وحيدة هنا لا يسر... فأنت تخرج كل مساء تقريبا يا ليون."

لماذا التذلل؟ لم تخبره بأن من حقها أن تسري عن نفسها؟ إنها ليست طفلة حتى يسألها عن غدواتها ورواحها. لذلك أردفت:

"سأخرج كلما راق لي، ولا تستطيع أن تمنعني."

رباه ما هذا الذي قالته؟ لماذا لم تلزم الحذر؟ انحسر الدم عن وجهها تماما، وحاولت أن تهرب إذ تقدم نحوها بخطوة سريعة، ولكن ساقيها خذلتاها، ووجدت نفسها في عناق يهشم الضلوع بلا رحمة وقال:

"هل ستخرجين حين يروق لك، مع الرجال؟ ستتأنقين لأجلهم، وتبدين جذابة. أما لي، فستبدين دائما كعجوز قروية شمطاء."

"أرجوك يا ليون، إنك لا تفهم. لم أحاول أن أبدو جذابة لأي سبب إلا...."

"إلا أن توقظي الرغبة في صديقك؟"

كان وجهه قريبا من وجهها، رهيبا كجذوتي النار اللتين تجلتا في عينيه، فلم يداخلها شك في نواياه. وأردف:

"نجحت في ايقاظ الرغبة في زوجك، وستتحملين العواقب."

فناضلت قسوته ولكنها بعد برهة استلقت مستسلمة تبكي بصوت خافت، وأمسك بها على مسافة منه أخيرا، فلاحظ الدموع على خديها. مفاجأة هجومه والخوف الذي تملكها جعلا كل عصب في جسمها يرتعش. وتذكرت ما قاله من أن القبارصة يهتمون بنسائهم ويعتزون بهن، فتبادرت الدموع الى عينيها ثانية. وحملق فيها والدموع تلمع على أهدابها ثم تنحدر على وجهها. كان لمرآها باكية تأثير عجيب عليه فإذا كل غضب وضراوة يتلاشيان فجأة، ومر بأصبعه على وجنتيها يمحو دموعها بحركة حنون، وهتف:

"لا تبكي يا هيلين!"

كأنه يمحو قسوته منذ لحظة. وأذهلها تصرفه، ولكنه بعث فيها أملا. فلما أفاقت أخيرا، تطلعت اليه وقالت:

"ما أحسبك.. ستخرج عن وعدك يا ليون؟"

سيطر صمت طويل، واشتد سواد عينيه وقد استقرتا على وجهها ورأسه على الأرض. فأجاب برفق:

"إنك زوجتي يا هيلين!"

وغشيتها مرارة طاغية. صحيح أن القبرصي لا يستطيع أن يعيش بدون امرأة... وأية امرأة ترضيه.

٥ - دعني وشأني!

نظر الطفلان بوجوم وهيلين تغلق غطاء حقيبة ثيابها فيستعصي عليها أحد القفلين. وسأل تشيبي في أسى:
"كم ستغيبان؟"
وبدت لمحة من السرور في عيني هيلين، وقالت:
"ثلاثة أيام على الأكثر، ابتسم أيها السخيف... إن من يراك يتصور أننا سنغيب شهرا."
قالت فيونا متذمرة:
"ثلاثة أيام مدة طويلة، ليس هذا عدلا، لم لا نصحبكما؟"
"لأن العمة هيلين تريد أن ترتاح. أخرجا الآن واتركاها تحزم متاعها."
كان ليون يقف بالباب... فقالت فيونا في اغراء:
"هل من الممكن أن نصحبكما يا عمي ليون؟ سنكون مؤدبين تماما."
فقال متعجبا يقطع الحاحهما:
"سآخذكما في وقت آخر."
وعندما رأيا أسارير ليون تتبدل، أطاعا على الفور. وانحنى ليون يتبين ما بالقفل، فلمست أصابعه القوية السمراء أصابعها، وإذا بها تنتزع يدها. وزم فمه واعتدل، ثم تناول يديها متعمدا وأمسكها بقبضة قوية، قال متهكما وعيناه تتأملان أصابعها الرشيقة:
"لا شك أنك تفضلين الرجال الانكليز، ولكنك - لسوء الحظ - تزوجت مني."
فردت هيلين:
"لسوء الحظ."
وجاهدت لتخلص يديها ولكن الضغط الفولاذي اشتد، وجذبها إليه، فقالت:
"هل يجب أن أذهب معك الى فاماغوستا؟ الطفلان مستاءان."
أحنى رأسه الأسمر قائلا:

"قلت إنهما لا يصيبهما أذى. نعم يا هيلين، يجب أن تأتي معي."
"ألا تستطيع الاستغناء عن امرأة لثلاثة أيام؟ أي صنف من الرجال أنت؟"
قال:
"أظن من حقي أن أتوقع مرافقة زوجتي حين أسافر."
كان صوته خافتا، لكن وميضا خطرا لمع في عينيه، وامتدت خطوط الغضب البيضاء من أنفه الى فمه. وقال:
"تبدين مقتنعة بمعرفتك سبب رغبتي أن تكوني معي."
وحاولت أن تسحب يدها، فأفلحت هذه المرة، لكن أصابع ليون انزلقت على ذراعيها وأمسكت كتفيها. قال محذرا وعيناه تتقدان:
"احترسي يا هيلين... من أجل صالحك."
كان وجهه قريبا من وجهها، نحيلا وفظا. ومات الرد على شفتيها فلا معنى لأن تجازف بالتعرض لهياجه، كما حدث منذ ليال. ثم أفلتها. وسألها:
"هل فرغت من حزم أمتعتك؟"
قالت ببرود:
"كل ما أحتاج اليه في الحقيبة."
وخطت الى الشرفة، فاذا مشهد البحر والسماء يبعثان السكينة. كان من الممكن أن تنسجم - قبل أسبوع وما يزيد قليلا - مع هذا الهدوء. أما الآن، فالاضطراب الداخلي يجعلها تتساءل:
"إلى متى تستطيع الاحتمال؟ وثقت به تماما حين قال - عندما خطبها - أنه لن يضايقها. ولم تتصور لحظة أن ينتهك وعده. ولكنه انتهكه، وبدون أي تعليل أو اعتذار. لم يظهر من المشاعر سوى الرغبة.
قال ليون وهو يقف بجوارها:
"هل حزمت كل الثياب التي اشتريتها؟"
فتطلعت اليه، ولاحظت بدهشة نثار الشيب في سوالفه أكثر ظهورا وقالت:
"هل حزمت ما أمرت بحزمه... لن أكسفك يا ليون."
وساد الصمت برهة، ثم تحول لينصرف، ولكنه عاد وقال بصوت خافت لكنه كزمجرة حيوان يتأهب للانقضاض:
"أنذرتك بأن تحذري، ولو أغفلت هذا التحذير،

فستتحملين الثمن."
وتركها وأصابعها المرتجفة على السياج، وعيناها تحدقان غائمتين في الخط الفاصل بين البحر الفيروزي الداكن، والسماء الأنقى زرقة.

* * *

انطلقا بمجرد ذهاب الطفلين الى المدرسة. كان الصباح بهي الاشراق، ومنظر الجبال تبدل مع كل انحناءة في الطريق، وما أن بلغا العاصمة واجتازاها، حتى مضيا عبر السهل في الطريق المستقيمة الطولية، عابرين بمناطق سكنية صغيرة، لا تتجاوز أحيانا مجموعة من الأكواخ الطينية تتناثر هنا وهناك بلا تنسيق. وقال ليون وعيناه لا تبرحان الطريق:
"سنذهب رأسا الى الفندق، ثم أصطحبك الى المدينة القديمة."
ألقت هيلين نظرة على جانب وجهه، ثم التفتت تواصل تأمل الطبيعة. واستأنف كلامه:
"تقولين أنك لم تزوري المدينة القديمة أبدا؟ انها غاية في الجمال، لها جو اعتبره فريدا."
قالت بصوت جامد:
"سمعت عن جمالها."
والتفت لحظة ينظر اليها، فواصلت ارسال بصرها خارج النافذة وسألها على غير توقع، وهو يحول عينيه الى الطريق:
"هل تكرهينني يا هيلين؟ كنا سعيدين في شكل معقول قبل... قبل..."
فقالت:
"قبل أن تتخذ مني متعة؟ نعم يا ليون. كنا موفقين. وكان من الممكن أن يستمر هذا."
فمست حافة فمه المتصلب ابتسامة مريرة باهتة، وقال:
"أتظنين ذلك؟ وأنت يا هيلين، هل كنت تقنعين بهذا النوع من الحياة؟"
"عرفت أنني ما نويت السماح لأحاسيسي بالتورط... افهمتك هذا يوم حدثتك عن غريغوري وكيف خذلني."

"لم تجيبي عن سؤالي. الرجال بشر، والنساء أيضا."
قالت:
"النساء مختلفات، لا سيما الانكليزيات."
فرد بمرارة:
"لا حاجة، بك لأن تخبريني بهذا."
ثم أردف:
"ولكني لا أزال أقول إنهن بشر، سواء كن باردات أو غير باردات، ألن تجيبي عن سؤالي؟"
قالت:
"لا يمكن أن أحلم بالانغماس في المعاشرة لمجرد التراضي."
فقال:
"ما زلت تراوغينني."
وانحرف ليتفادى عجوزا مسربلة بالسواد، انحنى جسمها تحت سلة كبيرة ربطت الى ظهرها، ثم استأنف حديثه:
"إنني أعترض على مصطلح التراضي يا هيلين، فارجو الا تستعمليه ثانية."
"إنك تشير قطعا الى أنني مخطئة في استنتاجي، وهو أنك تستغلني لمتعة مزاجك."
وأنذرها تهدج أنفاسه الى فورة طارئة من الغضب وقال:
"قلت لا تستعملي هذا المصطلح."
فقالت متهكمة:
"إنك مليء بالمفاجآت يا ليون... ما كان ينبغي أن أتوقع منك الاعتراض على فظاظة المصطلح."
فقال:
"يريحني أن أسمعك تقرين بفظاظته. كنت قد بدأت أعجب من سذاجتك الفجة، فهي لا تناسبك يا هيلين."
واقبلا على أكثر أجزاء فاروشا شعبية، عابرين خلال شوارع محفوفة بالمنازل والفيلات البيضاء، لكل منها حديقتها الساحرة المتألقة بألوان زهورها. وكان عبير زهور البرتقال يهب خلال نافذة السيارة المفتوحة. قالت:
"إطراؤك يحيرني."
أجابها:
"إن التهكم لا يناسبك، أرجو أن تتفاديه."
والتفتت بسرعة وحمرة الغضب على وجنتيها وقالت:
"ألا يسمح لي حتى بحرية الكلام؟"

أجاب:
"لك الحرية طالما أنك لا تقصدين إهانتي."
ولم يتبادلا كلمة حتى بلغا الفندق. ونقلت أمتعتها الى حجرتها فاذا مصاريع النوافذ مغلقة اتقاء للشمس، ففتحتها هيلين على الفور قائلة وهي تخرج الى الشرفة:
"لماذا يغلقونها؟"
كان الامتداد الأزرق الشاسع للبحر الأبيض المتوسط يتراءى أمامها وتحت الشرفة مباشرة تمتد الرمال الذهبية. وأدركت أن زوجها يقف بجوارها قائلا:
"إنها العادة... لم تألفي عاداتنا بعد."
عادة! كانت عادة أيضا أن يعامل الرجال زوجاتهم كأنهن ممتلكات. وتلفتت فإذا بالحجرة فراش لاثنين. أهو الذي طلب ذلك؟ قيل أنها القاعدة في أحسن الفنادق أن تجهز الغرفة بسريرين منفصلين. فقالت وفي صوتها رنة اغتمام مفاجئة:
"يحسن أن أخرج ثيابي."
ولكن ليون لم يتزحزح ليفسح لها مخرجا. فاستدارت، واستندت الى السياج تحدق في البحر ساهمة. وأحست بذراعيه يطوقانها فتيبست ولا بد أنه أدرك ما يخالجها، ولكنه قال:
"من الممكن أن يكون هذا شهر عسلنا يا هيلين."
فردت:
"شهر العسل للعشاق."
قال:
"وهذا ما أعنيه."
وأزاحته وفرت داخل الغرفة، صائحة:
"ألا تستطيع أن تدعني وشأني؟ هل يجب علي أن أعاني منك ليلا ونهارا؟"
وانفرجت شفتاه الشاحبتان، ووقف كالمصعوق لكنه تمالك نفسه في الحال. وتقدم بتؤدة وقبضتاه مشدودتان وعيناه السوداوان تطلقان شررا. وقال:
"إذا كنت تعتبرين عناقي مصدر عناء، فالجواب عن سؤالك هو نعم. سآخذ ما أبتغي، عندما يروق لي."
قالت والغضب باق في صوتها، ولكن الخوف أفعم قلبها:
"لكنك وعدت."
ليتها تستطيع الفرار من هذا الرجل ولكن الطفلين

كانا يعترضان أية فكرة لتركه. وكان يدرك أنها في حوزته ما دام الطفلان بحاجة اليها. وعادت تقول:
"ألا يؤلمك ضميرك أنك نكثت بوعدك؟"
فقال:
"لا ضمير عندي فيما يتعلق بصلتي بك. أنت زوجتي، وأنا لا أخرق القواعد اذا أخذت ما هو ملكي."
وقالت بسخط:
"لا داعي لأن تذكرني بأن الزوجة هنا ملك تقتنيه."
اضطربت عيناها إذ واجهتا الشمس، فأسرعت تجذب الستائر على النافذة، وقد كرهت - للمرة الاولى - الشمس والسماء الصافية، بل كل شيء يمت الى الجزيرة التي لا مهرب منها، وأردفت:
"لكنك لن تستبقيني الى الأبد، فبمجرد أن يبلغ الطفلان سنا كافية سأتركك."
انبعثت طقطقة خافتة من اتجاه منضدة صغيرة، فشغلتهما عن الحديث، وأصغيا، هيلين بحيرة وليون بعدم مبالاة - قال بهدوء وهو يسير الى المنضدة:
"قد تكونين أنجبت أطفالا قبل ذلك بوقت طويل."
فصاحت:
"تود أن تقيدني بهذه الطريقة!"
فأجاب بهدوء:
"بهذه الطريقة!"
وتطلعت مأخوذة، اذ كانت في صوته اختلاجة غريبة، كأنما يجد أشد الصعوبة في الكلام. والتقت نظراتهما، وبغير مبرر قفزت الى ذهنها ذكرى اللوعة البسيطة التي أحست بها حين رأته مع بولا قرب الهيلتون. ولذهولها محت الذكرى كل ما جرى، وتقدمت منه وكأن قوة في ذاتها تجذبها نحوه، ومدت يدا - بدون أن تفطن - في توسل، وهتفت:
"ليون"
تناول يدها فأمسكها بقوة. وعاد الدم رويدا الى شفتيه. واكتسحت ابتسامته كل خشونة. وقال:
"نعم يا هيلين؟"
ولكنها لم تستطع الكلام، عجزت عن صياغة كلمات تعبر عن أفكارها وتصف اضطراب قلبها، ذلك الاضطراب الذي لم يعد وليد خوف. وخيل اليها أن شيئا في كيانها يستجيب

برغم ارادتها . فقالت:
"هذه الرحلة القصيرة... هل... نستطيع أن نكون سعيدين فيها؟"
وحدق فيها غير مصدق، ثم جذبها برفق، وأحاط خصرها بذراعه، وتمتم:
"أجل يا عزيزتي... نستطيع... أن نكون سعيدين."
سرى في أعماقها شعور بالذنب لا تدري معناه. وتكلمت مسرعة تحاول دفع الشعور عنها:
"ما هذا الصوت يا ليون؟... أهو الخشب؟"
فهز رأسه مبتسما وهو يقول:
"إنها حشرة، تدب في الأثاث. سنطلب من خادمة الغرف أن ترش مادة مبيدة."
قالت:
"حشرة؟ كيف تدخل في الخشب؟"
قال:
"صفحات المناضد مثقوبة. وتغلغل هذه الحشرات مدهش."
قالت:
"أحسب أنه اذا اوتيتم طقسا كهذا فلا بد من قبول المساوىء التي تصحبه. فلا يوجد شيء كامل!"
وابتسمت ابتسامة واهنة، فعاد يمسك بيديها ويتأملها، ثم رفعها بأسى وقال:
"كلا يا هيلين، لا يوجد شيء كامل."

* * *

انطلقا بعد الغذاء الى فاماغوستا القديمة، في زيارة لأسباب تتعلق بالعمل - بالدرجة الاولى - كما قال ليون، ولكنه لم يبق في مصانع التعبئة سوى دقائق. وقال وهو ينزلق الى مقعد القيادة بجوارها:
"سنمضي في بساتين البرتقال. إنها متعة في هذا الوقت من السنة."
وكان على صواب اذ كانت البساتين تمتد أميالا في كل اتجاه، وكانت هناك فضلا عن أشجار البرتقال -

أشجار اليوسفي والحامض. كانت المنطقة بأسرها كتلة زهور، والهواء مشبعا بعبيرها. وقالت هيلين وهي تستنشقه:
"هذا رائع، لم أر مثل هذا في حياتي."
أوقف ليون السيارة. واختفى الوميض القاسي من عينيه وهما تتأملان هيلين برهة، وهي تقف على حافة بستان البرتقال، والنسيم يداعب شعرها، متوردة الوجنتين، وعيناها متألقتان. كانت ترتدي أحد الأثواب التي جعلها ليون تشتريها: ثوبا من القطن المطبوع بالزهور، أبرز قسمات جسمها الشاب. وقال بصوت خافت:
"أنت جميلة جدا يا هيلين."
واشتدت حمرة وجهها. ومد ذراعه فوق رأسها، فقطع فرعا صغيرا، وقال:
"زهور البرتقال هدية للعروس."
وناولها الفرع. وفجأة، بدا شابا صغيرا غير واثق من نفسه. كان التغير سريعا حتى تصورت أنها كانت واهمة. وابتسمت له وهي تتناول الفرع المعطر وتقربه الى وجهها، وقال بصوت خافت ورقيق:
"أنت بارعة الجمال!"
قالت له وقد عادا الى السيارة، وهي ممسكة بفرع البرتقال قرب وجهها وتتنشق عبيره:
"حدثني عن البرتقال يا ليون. أعني ما عملك... في مصانع التعبئة؟"
فقال:
"كل الثمار تنتقل اليها بعد الجمع، فتغسل وتفرز... تغسل قبل تصديرها، وتقوم نسوة بهذا العمل عادة. ثم تفرز وتعبأ للتصدير."
قالت:
"وأنت تملك المصانع فقط... دون البساتين؟"
قال:
"أملك المصانع..."
وساد الصمت والسيارة تمضي تحت سماء صافية. كانت الطريق ملاصقة للبحر، وعلى طول أحد جانبيها، كانت هيلين تلاحظ النباتات العالية.
قالت وقد ثار اهتمامها:
"ما هذه؟ إنها تبدو نوعا من القصب."

فأجاب:
"إنها غابة قصب تزرع لحماية بساتين البرتقال من هواء البحر."
كانت البساتين تمتد حتى البحر تقريبا. واستطرد ليون:
"إننا نصدر كميات كبيرة الى انكلترا، من الكريبفروت كما تعلمين."
كانت في صوته رنة زهو،... زهو بجزيرته ومنتجاتها... وكان كل القبارصة الذين التقت بهم مثله... أي شيء ينتج في قبرص يتفوق على كل ما ينتج في أي مكان آخر.
عندما بلغا المدينة القديمة، أوقف ليون السيارة في الساحة، ودخلا أحد المقاهي لتناول بعض المرطبات.
ولم يكن هناك سوى رجال، اتجهت عيونهم كالعادة صوب هيلين، وليون، ثم ارتدت الى الصحف ولعب الورق والطاولة.
قالت هيلين تستعلم، وهي تراقب رجلين يلعبان على مقربة:
"هل يلعبان على نقود؟"
قال:
"على المشروب فحسب."
فرمقته بنظرة، متسائلة:
"أليس لديهم عمل؟"
فضحك قائلا:
"ما زال رأسك الجميل مشغولا بأن النساء يعملن، بينما يقضي الرجال الوقت في التكاسل؟"
امتقع وجهها لأن هؤلاء الرجال بدون نشاط سوى اللعب. وزاده امتقاعا استعمال ليون كلمة الجميل، يا له من شخص متقلب! تعمدت في بداية الامر ارتداء ثياب قديمة لئلا تبدو جذابة للرجال، ولكنها تشعر بالسعادة الآن لأن ليون يعتبرها جميلة وما الذي يساوره؟ من الواضح أنه عرف من البداية أنها مصممة على أن تستبقيه على مسافة منها. وقالت أخيرا:
"أكره أن أكون زوجة رجل فقير هنا."
رمقها متسائلا وقال:
"أصحيح هذا يا هيلين؟"
فعضت شفتيها وقالت:
"ما عنيت هذا... إنما قصدت أنني ما كنت أتمنى أن أولد هنا، وأكون فقيرة... إنك تعلم ما أعني."

قال:
"نعم، أعرف ما تعنين."
ونظر الى صاحب المقهى إذ أحضر صينية تحمل فنجاني قهوة صغيرين وكوبي ماء. ثم استأنف:
"لكن النساء هنا لا يأبهن. تعودن هذا، طالما أنهن يهتدين أخيرا الى زوج فهن مقتنعات."
تناولت رشفة من قهوتها وقالت:
"تلك الزيجات.. الزيجات التي لا تقوم على حب.. كيف يتسنى؟"
قال:
"الأمر بسيط، فمثلا تزوج بافلوس، أحد أبناء عمي أخيرا فتاة من قرية صغيرة في الجبال. سعى اليه أخوها وأخبره بميزاتها، قائلا بوسعها أن تقدم بيتا. فوافق بافلوس على اللقاء بها، والواضح أنها راقت له فقبل الزواج منها على الفور."
وتناول جرعة ماء، وومضت عيناه بابتسامة حيال الصدمة التي بدت على هيلين، التي سألته:
"أهذا كل شيء... الأخ يدبر الأمر والشاب يتأملها لكن هذا بشع!"
فقال:
"إنه الاجراء الطبيعي."
فصاحت:
"ولكن الفتاة... أليس لها أي رأي في الأمر؟"
قال معترفا:
"رأيها لا يذكر... بل اذا رفضت فان أباها واخوانها لا يصغيان الى رأيها لكن يندر أن يحدث هذا. الرجل يحسن صنيعا للفتاة بأن يتزوجها، ولذلك تعترف بفضله ولا تفكر في رفضه." فقالت:
"إنه يبدو نوعا بغيض التدبير، لا بد أنه محرج للفتاة الى حد مؤذ."
فقال وعلى وجهه وميض ابتسامة:
"أبدا إنها العادة يا عزيزتي."

* * *

خرجا الى الساحة فإذا ضوء الشمس ينعكس على جدارن القصر البندقي الفخم. وكان يواجهه مبنى آخر شامخا. فقال ليون:

"هذا هو الجامع... هذه المدينة القديمة هي - كما تعلمين - الحي التركي في فاماغوستا. أتودين دخول الجامع؟"

فأومأت برأسها، وخلعا أحذيتهما ودخلا المبنى الجميل - الذي كان يوما كاتدرائية القديس نيقولا، وأقامها ملوك قبرص قبل قرون كثيرة. حتى اذا خرجا، قال ليون:

"سنقوم الآن بجولة في السيارة!"

وأخذها لترى الجدران البندقية، والقلعة ذات البرج المشهور حيث أخرجت قصة عطيل. وخيل الى هيلين في جولتها أنها رأت مئات الكنائس، تحولت الى أطلال.

قال ليون:

"كانت ثلاثمائة وخمس وستون كنيسة."

فهتفت:

"غير ممكن... في مثل هذا المكان الصغير؟"

قال:

"هذا حقيقي، اختفى معظمها طبعا، ولكن قسما كبيرا بقي."

وتوقف مرات عدة ليريها بقايا النقوش الملونة والفسيفساء. فقالت:

"لا تزال باقية بعد كل تلك السنين. هذا يبدو مستحيلا!"

فقال:

"المناخ يساعد على حفظها... فالمطر هنا قليل."

اتجها في السيارة الى بوابة البحر، التي دخل ريتشارد قلب الأسد خلالها الى المدينة، ثم تركا السيارة، وسارا على الأقدام. لم تشعر هيلين بمثل هذه السعادة منذ أمد طويل. وأمسك ليون يدها اذ انزلقت على حجر متفكك، واحتفظ بها طيلة مسيرتهما.

عندما عادا الى غرفتهما في الفندق، وضعت هيلين غصن زهر البرتقال في كوب ماء. وراقبها ليون وهي تخرج من الحمام، فابتسمت ووضعت الكوب على منضدة الزينة، وكان ليون قد دعا بعض أصدقاء العمل للعشاء فسألته، وهي تطرح ثلاثة أثواب كوكتيل على السرير:

"أيهما أرتدي؟"

أدهشها سؤالها بقدر ما أدهشه، فقبل سويعات قلائل ما كانت تحلم باستشارته. ورفع ثوبا، ثم هز رأسه وتناول آخر. كان الثوب القصير الواسع، من القطن المائل الى الصفرة يلائمها كل الملاءمة. فقال:

"هذا!"

كان اثنان من أصدقاء ليون انكليزيين -والثالث قبرصيا يونانيا. وكان يانيس يني أول من وصل، فنظر باعجاب الى هيلين حين تعرف اليها، وأمسك بيدها أطول مما ينبغي. فسأله ليون:

"ماذا تود أن تشرب؟"

والتفت يني اليه، فلمح عبوس محياه، وهتف:

"أتغار يا ليون؟ كلا، ليس مني!"

وجلس على مقعد مرتفع بجوار هيلين وقال:

"سأشرب رتسينا اذا سمحت."

يغار؟ وحدقت هيلين في زوجها، وكان يرتدي حلة أنيقة من التيل، ذات لون رمادي جذاب مشوب بالزرقة. قميصه الأبيض يبرز سمرته، ولدهشتها وعجبها شعرت بلمسة فخر، فتصاعدت الحمرة الى وجنتيها عندما التفت ليون ورمقها بنظرة باردة. يغار؟ كيف تنشأ غيرة بدون حب؟ وما لبث ليون ويانيس أن اندمجا في حديث عن العمل. وسرعان ما وافاهم صديقا ليون الانكليزيان إريك وستيفن. وفرحا أيضا بلقاء هيلين.. تبينت أن الانكليز.. برغم كثرة المقيمين منهم في الجزيرة - كانوا يتلهفون للقاء معارف جدد من انكلترا. وعندما علقت على هذا، قال اريك:

"هذا صحيح.. ومع هذا فنحن في كل مكان من الجزيرة."

وقال ليون دون ضغينة:

"سرعان ما سيفوق الانكليز عدد القبارصة. الناس يغادرون بلادهم فرارا من الضرائب."

والتفت ستيفن الى هيلين مبتسما وقال:

"هكذا يقتني زوجك وأمثاله الثروات."

وأضاف بايجاز:

"الأرض!"

الأرض، ومصانع التعبئة. هل كان ليون واسع الثراء؟ ما أغرب أن تكون زوجة جاهلة تماما بشؤون زوجها المالية. لم تكن لديها أقل فكرة عن دخله.

وبعد العشاء انتقل الجميع الى ملهى ليلي - وأخذ النعاس يغالب هيلين شيئا فشيئا، حتى باتت مستعدة لأن يحملها زوجها الى الغرفة حين دخلا الفندق في الثالثة صباحا.

بعد افطار متأخر خرجا الى الشاطىء مباشرة. وكانت الشمس حارة، فاقترح ليون أن يسبحا. ولدهشة هيلين لم تشعر بآثار سيئة نسبة الى الليلة الفائتة، بل كان وجهها يتألق صحة وهي تسير الى جواره نحو الماء. وسبحا قليلا، ثم استلقيا تحت الشمس. وبعدما تناولا غذاءهما قال ليون:

"ساضطر لأن أتركك زهاء ساعتين فلدي عمل، ستكونين على الشاطىء أكثر راحة منك في السيارة الحارة."

وسألت هيلين نفسها، وهي تتأمله بفضول: هل كان يجد هذا العمل مضجرا حقا؟ على أنه لم يغب أكثر من ساعة ونصف الساعة، ثم فتحت عينيها فإذا به يقف في ثوب السباحة، طويلا، أسمر، وسيما بدرجة تفوق التصور. منذ متى كان واقفا يتأملها متفرسا؟

استوت جالسة، يغشاها الحياء، وقالت:

"عدت مبكرا."

قال وهو يجلس باسطا ساقيه الطويلتين:

"لو صدقت ما تراه عيناي لقلت أنك سعيدة؟"

ومال على أحد مرفقيه يحدق فيها قائلا:

"هل أنت سعيدة يا هيلين؟ أم ترى لا يجوز لي ان أوجه ذلك السؤال؟"

واستمرت ترسم بأصابعها صورة على الرمال. هل كان يريد أن تحفل به، أم أنه يريدها مجرد جاريته المطيعة؟ من المؤكد أنه كان يريد شيئا يفوق العلاقة من جانب واحد ويتخطى أن يأخذ بنفسه ما كان يعتبره حقا له، لكنها لم تمنحه شيئا وما كان يحتمل أن يرضيه فتورها وهو المتأجج الهوى. وربما عجزه عن ترويضها كان يجرح كبرياءه. اذ علمت هيلين من ترودي أن الحب لدى اليونانيين عامة فن وهم يدركون أنهم متفوقون فيه عن سواهم. قالت ترودي في خجل:

"الانكليزي ناشىء في هذا الفن، اذا قورن بهم. ولو قدر لليون أن ينكث بوعده، ستشعرين أنك في نعيم!"

دفعت ذكرى هذه الكلمات الدماء الى وجه هيلين. واختار ليون هذه اللحظة بالذات ليرفع رأسها بلمسة رقيقة تحت ذقنها. ومن الغريب أنها لم تقاوم حركته. وقال:

"لماذا يا هيلين الجميلة؟"

واضطرب شيء ما في كيانها ولكنها أبت أن تفسر هذه الهدنة التي التزماها، وكل منهما يوقن أنها تتوقف في نهاية الرحلة... وتمتمت وهي تحاول أن تتبين ما في عينيه:

"كنت أفكر في أمر ما."

فقال وفي صوته اصرار:

"ما الذي كنت تفكرين فيه فجعل وجهك يحمر هكذا؟"

هزت هيلين رأسها وهبطت يده على يدها، فأمسكها باصرار حال دون تخطيطها العصبي على الرمال، وقال:

"الجو حار، انزلي الى الماء؟"

ونهضت على الفور، بعدما ارتاحت لاقتراحه. وسارا الى حافة الماء يدا بيد كعاشقين. وانطلق ليون في الماء بعيدا، لكن هيلين بقيت قريبة من الشاطىء. وما لبثت أن طلعت فجلست على الرمال الدافئة، وعيناها تتابعان رأس ليون عن بعد. لوح لها بيده فلوحت له. كانت مثل هذه الزمالة جديدة عليها، لم تعرفها مع غريغوري -وعجبت- وهي تسترجع علاقتها بغريغوري- أنهما لم يكونا متقاربين في الواقع. وما كانت تعتبره زواجا سعيدا، كان في الواقع مجرد تعايش كثيرا ما وصفه الناس بأنه مريح. أما السعادة؟ وتمثلت لها صورة ترودي واشراقتها كلما ذكرت زوجها.

تمتمت هيلين لنفسها: وانقضى على زواجهما ست سنوات! أجل، كانت حقيقة لا يمكن انكارها، كان ترودي وناسوس، متحابين اليوم بقدر ما كانا يوم زواجهما.

* * *

كانت ترسم على الرمال حين وصل ليون. فقال وهو يمسك بيدها:

"ألا ترسمين لي؟"

قالت وهي تستجيب إذ جذبها فأوقفها:

"لست بارعة يا ليون."

كانت قطرات الماء تتلألأ على جسمه الأسمر. والتمعت عيناه وهو يتأمل كل صغيرة في قوامها الممشوق،

وألصق ذراعه بذراعها فجففت ساعدها وهي تضحك. وقال:
"بالنسبة الى رسمك هذا - أنا الذي سيحكم، هل هو جيد أم لا. عندما نعود الى بيتنا سترسمين لوحة."
فقالت:
"كلا، أين ستضعها؟"
فجاء رده ناعما:
"سأعلقها في مكتبي."
وشعرت بهزة سعادة. لم يكن لغريغوري رأي في انتاجها، بل كان يقول صراحة أن صورها ينقصها الشعور... ورفض أن تعرض شيئا منها.
قالت منذرة:
"ربما يتغير رأيك حين تراها."
فقال:
"لن أغير رأيي."
لماذا كان يريد لوحة لها معلقة حيث يستطيع رؤيتها باستمرار؟ هل لتذكره بأنه يمتلكها؟ وأبعدت هذه الفكرة، فمهما كانت عينا ليون، كان يبتسم باخلاص صادق أعجبت به، فالناحية العاطفية من طبيعته شيء قائم بذاته، أدت قوتها الى نبذ النوايا الطيبة التي كانت لديه حين عول على الزواج منها. وكان لنكثه بوعده، وعدم اكتراثه لمشاعرها، أسوأ الاثر على رأيها فيه. ومع ذلك كانت موقنة بأنه في جوهره رجل صالح، تستطيع أن تعتمد عليه وتركن اليه.
سارا ببطء الى حيث تركت هيلين منشفة الشاطىء، فالتقطها ليون وساعدها على ارتدائها، ثم ارتدى إزاره. ولم يكن على الشاطىء سوى افراد قلائل من الفندق، يستمتعون بالشمس. وتساءلت هيلين:
"أترى زوجها كان يعرف أن زوجين يشغلان مائدة قريبة من مائدتهما في الفندق، راحا يراقبان رعايته لها باهتمام؟"
قال:
"ارفعي رأسك!"
فأطاعت.. واضطربت عيناها إزاء تألق الشمس. ومست أصابعه عنقها، ثم هز رأسه وابتسم لها في حنان وقال:
"لو لم يكن هناك من يرقبنا لقبلتك!"
ذهبا في اليوم التالي الى لارناكا، وراحا يتمشيان على الشاطىء وتناولا بعض المرطبات في مقهى صغير

تحت النخيل، ثم استقلا السيارة الى البحيرة المالحة الكبيرة، التي ترتادها الطيور الموسمية. واعجبت هيلين بهذه الطيور فقال ليون:
"من حظنا أن نراها، فسترحل قبل نهاية الشهر."
وابتسم لها مضيفا:
"كنت أدرك أن هذا المكان سيروق لك. والآن، أتودين أن نوغل في الجبال؟"
وشاب صوتها شيء من الشغف وهي تقول:
"نعم يا ليون. هل نحن بعيدان عن ليفاكارا. أتمنى رؤية النساء تقمن بأعمالهن الحرفية وأود شراء بعض منتجاتهن، إذا أمكن."
قال:
"هذا ممكن طبعا، ولست مضطرة لأن تسأليني يا هيلين."
وصلا الى قرية جبلية صغيرة، تصنع فيها منتجات، لاسيه ليفكاريتيكا ذات الشهرة العالمية. فاشترى ليون أغطية للموائد ومناشف ومناديل وثوبا مطرزا بشكل فخم، مزين الصدر، والاكمام بأرق الدانتيل.
وشهقت هيلين إزاء ثمنه، وقالت:
"إنه باهظ... والأبيض يناسبني."
فتلفت ليون حوله قائلا:
"حقا، الابيض يلائمك."
ودعتها صاحبة المتجر الى التجربة.. وهزت هيلين رأسها، لكن ليون ألح. كان الثوب مناسبا لها تماما، وجميلا، وحبست أنفاسها اذ رأت صورتها في المرآة، وهتفت:
"إنه جميل جدا... ولكن الثمن غال جدا."
فقال ليون:
"لا شيء يعتبر غاليا لك يا عزيزتي."
ثم أردف بصوت خافت:
"ألم نقل أننا سنسعد؟"
وعاد يقول:
"هل أنت سعيدة يا هيلين؟"
كانت في صوته رجفة، وراح يتأمل محياها متلهفا في انتظار الجواب وارتعشت ابتسامة على شفتيها الجميلتين، وقالت بصوت خافت وبحة:
"نعم يا ليون... إنني سعيدة..."

٦ – الطاحون لوحة جميلة

امتزج الربيع المسرع الخطى، مع الصيف على نحو غير ملحوظ، وتدفق الزائرون بالآلاف على المصايف الساحلية والجبلية. لكن البيت الأبيض الجميل المتربع عاليا على السفح فوق لابيثوس، لم يتأثر. ولم تتمالك هيلين – وهي مضطجعة في مقعد من القماش في الحديقة – أن تقر بأنها محظوظة من نواح كثيرة. فكانت حياتها – حتى شهور قليلة مضت تتسم بوحشة الوحدة والكآبة وليس فيها ما يرتجى سوى العمل لاعالة نفسها. ودار بذهنها أن القدر قام بحيل عجيبة. فلو لم تفكر بريندا فيها – حين علمت بمشروع ارسال تشيبي وفيونا الى عمهما ما كانت وضعت قدما فوق هذه الجزيرة البديعة، ولما سنحت لها فرصة اتخاذها موطنا. مع أن الحياة تحتفظ بمشكلات لا بد منها كزواجها من ليون بدافع رعاية الطفلين.

خففت الرحلة من توتر علاقتها الجديدة بليون ولم تستطع أن تنسى أنها – بالنسبة اليه – مجرد امرأة أخرى، وانه عاشرها بدون حب، فلم تكن قادرة على أن تغفر له انتهاكه وعده المبدأي وتنهدت متذكرة أنه وافقها على أنه لا يوجد شيء كامل. ولقد انسابت وليون لنمط حياة محتمل. وعليها أن ترضى بهذا، فهذا أفضل من السخط الذي كانت تعانيه – في البداية كلما اقترب ليون منها.

رفعت رأسها عندما أقبل ليون، واغتصبت ابتسامة، وقالت في أدب:

"كان يومك حافلا بالعمل؟"

فأجاب:

"الى حد كبير ... وأنت؟"

فقالت:

"أظنني أجنح الى الكسل. آراتيه تقوم بكل شيء."

فوقف يتأملها وفي عينيه الداكنتين ابتسامة، ثم قال:

"اكتسبت سمرة فاتنة يا عزيزتي."

كانت اطراءاته تصدر عفوا... ومتباعدة... ليتها تصدر من القلب وعن صدق. لكنه كان يقدمها لنساء غيرها في الماضي وربما لسواها في المستقبل.

أحضر مقعدا وجلس أمامها. وقال:

"سنزور عمة لي هذا المساء، شكت لي هاتفيا أنها لم تقابلك."

فسألته:

"عمة أخرى؟ لم تذكرها لي مطلقا."

فقال بابتسامة واهنة:

"ما أكثر الأشياء التي لا يزال كل منا يجهلها عن الآخر."

واكتفت بالايماء، فسألها:

"كيف يحدث أن الحديث الطبيعي صعب جدا بيننا يا هيلين؟"

أدهشها السؤال، اذ بدا في احدى حالاته اللينة، اللطيفة، التي تبعث فيها شعورا بالذنب لا تدري له سببا. فقالت:

"لا أظن أن الحديث متعذر."

فقال:

"قلت: الحديث الطبيعي. كان ينبغي أن أقول أن تبادل المعلومات الحميمة صعب بيننا."

فقالت:

"أحسب أن هذا أمر مفهوم... نظرا للظروف."

تحول ليون عنها، فضاقت عيناه اذ كانت الشمس تواجهه، وسرح بصره نحو السفوح المكسوة بالغابات والزرقة الشاسعة خلفها. ثم قال:

"لماذا تواصلين الشعور بهذا النفور مني؟"

كانت كلماته تنطلق بصعوبة، وفي مرارة. وأردف:

"لقد حدث ما حدث."

فقالت:

"ربما لا ينبغي أن نعود الى هذا يا ليون، تكلمنا من قبل، فكانت النتيجة دائما توترا بيننا. يجب أن نمضي في الحياة معا، فلنحاول أن نجعلها تسير بسلام بقدر ما نستطيع."

تحرك رأسه فتحول الشيب في سوالفه الى فضة، وسألها:

"أتستطيعين ترويض نفسك على هذا.. الى الأبد؟"

واستدار نحوها قائلا بصوت خافت:

"إننا لم نحاول، ألا ترين أن نحاول... أن... أن؟"

فبادرت:

"هل تتوقع مني حبا ؟"

تسربت رنة المرارة الى صوتها ، وغامت عيناها في تفكير مهموم فقال:

"كلا يا هيلين، لا أتوقع، ولكن، ما أرق أن أشعر بذراعيك حولي أحيانا."

وسكت عندما رآها تجمد متصلبة، فاسترسل مسرعا وكأنه يريد أن ينسيها لحظة الضعف الى حد الهوان:

"كلا، لا أتوقع منك حبا. إنك لا تريدين أن تمنحيه. أخبرتني من البداية أنك لن تسمحي لانفعالاتك العاطفية بأن تورطك مرة أخرى.. بسبب ما فعله رجل غيري."

وسمعت أصواتا تتردد على سفح التل... كان تشيبي وفيونا يلعبان مع أطفال القرية، لكن صراخ فيونا يزداد ارتفاعا. قالت:

"قلت إنني لن أعرض نفسي لذلك النوع من آلام القلب ثانية."

فقال:

"هل تعتقدين أن هذا المسلك معقول؟"

قالت:

"لن أتيح لرجل آخر أن يؤذيني ثانية. لن أقع في الحب ثانية."

فسألها:

"ومع ذلك تتوقعين الحب مني؟"

فنظرت اليه بحدة، وقد حيرتها كلماته وقالت:

"لم أتوقع منك حبا يا ليون."

احتدت نظراته واكفهر وجهه كبرياء، وقال:

"إذن لماذا الامتعاض؟"

وبدأت تفهم ما به، فقالت:

"إنك تعرف السبب -ليس لأنك تعاشرني بدون حب، وإنما لأنك تفعل فحسب!"

فهز كتفيه بصبر ناقذ وقال:

"إنك غير واقعية ولا منطقية."

وقالت:

"غير منطقية لأنني توقعت أن تلتزم بوعدك؟ أنت عرضت علي الزواج من أجل الطفلين، ووافقت ايمانا بأنك ستفي بوعدك. فلماذا عدلت؟"

وتردد مترويا ، قبل أن يقول:

"سأكون صريحا جدا يا هيلين، ولن يروق لك هذا - أول ما رأيتك كنت خلوا من الزينة والتأنق، وليس فيك ما يثير انتباه أي رجل، فلم تطرأ ببالي الرغبة فيك."

وسكت يتأمل الدماء تتصاعد الى وجنتيها ، ثم استرسل:

"وبرغم أنك قبلت أن تكوني زوجتي، لم تكوني - فيما يتعلق بمشاعري أكثر من خادم... مربية للطفلين. ولكن سرعان ما بدأت أتبين أن خلوك من الزينة والأناقة كان متعمدا ، وأخذت أرى أنك قد تكونين.."

فصاحت:

"مثيرة!"

والتمعت عيناه بنذير خطر وقال:

"نعم، اذا كانت هذه هي الكلمة التي تودين استعمالها. كنت أتوق الى معرفتك على حقيقتك، فأبديت رغبتي في أن تحصلي على ملابس."

فقالت:

"كي أتأنق ارضاء لفضولك؟ لأصبح دمية جميلة؟"

وسكتت اذ رأت محياه... كانت تعرف اهتياج غضبه. ولكنه قال متهكما:

"لكن تأنقت لشخص غيري - لذلك الانكليزي اللعين!"

قالت:

"كلا..."

فقال

"بل فعلت!"

فردت:

"لكن... رأيتني ووجدتني مثيرة. أهذا عذر لتنكث بوعدك؟"

قال:

"هذا الوعد أصبح فكرة متسلطة عليك... قلت لك إنك غير واقعية. هل تظنين أننا نستطيع أن نمضي هكذا أربعين سنة أو أكثر؟"

وفي تلك اللحظة اندفعت فيونا الى الحديقة، لاهثة توشك أن تبكي وهي تصيح:

"عمي ليون!.. عمتي هيلين.. لا تدعاهم يمسكون بي."

* * *

كان التغيير الذي ألم بليون أشبه بمعجزة، وحمل الطفلة وأجلسها على ركبتيه، وضم رأسها الى صدره، وأخذ يربت مواسيا، فبكت فيونا، وأخرج منديله، وهو يقول:
"يا لله، ما بالك؟"
وأخذ يجفف دموعها، وازداد تشنجها عندما أقبل تشيبي لاهثا، يتبعه ولدان، وهم يلوحون بعصي ويصرخون، ولكنهم وقفوا جامدين عندما شاهدوا فيونا على ركبة ليون، شحب وجه تشيبي، بينما راح ليون ينقل بصره بينه وبين زميليه، ثم استقر بصره على العصا التي في يد تشيبي وصاح:
"ما هذا الذي تفعله؟"
وارتجفت هيلين نفسها للهجته، وتسارعت دقات قلبها. بينما قال تشيبي واجفا:
"إننا نلعب لعبة السجن."
قالت فيونا بين نهنهاتها:
"حبسوني في البيت التركي العتيق في الغابة... وقالوا إنهم سيتركونني هناك الى الأبد."
فأسرع تشيبي قائلا:
"لم نكن جادين، إنك تعلمين هذا..."
فقال اندرياس وهو يرمق فيونا بازدراء:
"بل كنا جادين، إنها مجرد بنت."
وقال اليكس وهو أكثر من صاحبه حصافة:
"لم نكن جادين، وما كنا سنتركها هناك. صدقني يا سيد بيترو."
تفرس ليون في الغلامين، وقال بهدوء:
"انصرفا... سأقول لأبويكما في الصباح."
وأطاع اندرياس متجهما. أما اليكس فتلكأ مضطربا، وقال:
"سيضربني أبي."
قال ليون:
"كان ينبغي أن تفكر في هذا، البنات الصغيرات جديرات بالرعاية وليس بالمطاردة بالعصي."
وابتعد الغلام بضع خطوات، ثم التفت قائلا:
"آسف يا فيونا... لن أطاردك ثانية."
وألقى نحو هيلين نظرة استعطاف، ثم انصرف. فاعتزمت هيلين أن تشفع له، عندما يصفو مزاج زوجها. وكانت فيونا مستمرة في بكائها فقالت:

"دعني آخذها يا ليون."
وتركها لها وهي ترتجف، وعينا ليون قاسيتان، غاضبتان. ونهض فأشار الى تشيبي أن يقترب، ثم أمسك بذقنه، ورفع رأسه قائلا:
"لا بد من ايضاح كامل. ما معنى أن تسجن اختك في ذلك البيت؟"
قالت هيلين في حيرة:
"كيف تحبسونها؟"
كان البيت طللا خربا، وخاليا لثلاثين عاما، وليست له نوافذ.
وقالت فيونا وهي تنتحب:
"اضطررت لتسلق الجدار، ومزقت ثوبي. ثم ركضت فتعقبوني."
ما كان ثمة شك في فزعها. وأمسك ليون بكتفي تشيبي يهزه قائلا:
"أجب عن سؤالي فورا."
كنا نلعب فحسب يا عمي ليون. اقترح اندرياس لعبة السجن، ولم يكن هناك من نحبسه سواها."
قالت هيلين:
"ما زلت لا أدري كيف سجنوها... ليس للبيت باب."
فقالت فيونا:
"كنت في الجزء المخصص للبقر."
وصاح ليون مرعدا، غير مكترث لقولهما:
"إنني أنتظر يا تشيبي، أريد معرفة ما حدث تماما."
قال تشيبي بصوت مرتجف:
"وضعناها في الداخل، وأغلقنا بوابة المدخل."
وأمسكت هيلين بفيونا تهدئها، وهي تقول:
"أجل... هناك بوابة ثقيلة، ولكنها صدئة."
وشرع تشيبي في البكاء، فهمت هيلين بالتدخل، ولكن ليون صاح وقد برز فكه واسود حاجبه غضبا:
"دعي هذا الامر لي."
وسأل تشيبي:
"كيف استطعتم اغلاق البوابة؟"
فقال:
"دفعتها أنا واليكس، وغلام آخر هرب حين شرعت فيونا

في الصراخ."
فعاد يسأله:
"ماذا كان اندرياس يفعل؟"
قالت فيونا وهي ترمق أخاها:
"كان يحرسني، وناشدت تشيبي أن يساعدني فأبى، ترك أندرياس يقف بعصاه ليمنع هروبي."
فنظر تشيبي الى أخته قائلا:
"كنت السجينة ولم تمانعي في البداية. لم تكن العص لضربك، وإنما كانت بمثابة البندقية. وقلت انك تمانعين؟"
والتفتت اليه ودموعها تنساب على وجهها، قائلة:
"ما كنت أظنكم ستغلقون البوابة. قال أندرياس إنها سحر وإذا اغلقت لن يستطيع أحد فتحها ثانية، ولن أخرج م هناك."
كاد فزعها ينقلب الى انفعال هستيري، فأشار ليون عل هيلين بأن تدخل معها، وتعطيها دواء منوما."
تطلعت هيلين الى زوجها في توسل، وان كانت مضطر للاقرار بأن تشيبي جدير بالعقاب. فقال ليون وهو يأخذ الع من تشيبي:
"اعتقد أن إذاقته هذه العصا على ساقيه لن يؤذيه."
فصاحت بوجه شاحب، وهي تهز رأسها:
"كلا، يا ليون! سيتذكر هذا طيلة عمره، وسيظل دائ حاقدا."
كانت لكلماتها تأثير عجيب على ليون. فحدق فيها والحير في عينيه ثم قال وكأنما نسي وجود الطفلين:
"كأنك قلقة علي وليس على الطفل."
قالت وعيناها لا تحيدان عن وجهه:
"نعم... أرجوك يا ليون!"
وعاد يسألها:
"أتزعجك فكرة أن يبغضني؟"
أجابت:
"نعم... إنه يكن لك اعجابا واحتراما كبيرين، ولا أريد يتغير رأيه فيك."
هز رأسه - وأطلق زفرة وهو يقول:
"إنك عجيبة يا هيلين... لا أستطيع أن أفهمك."

والتقت نظراتهما، فسرى في عينيه تعبير غريب، هل قرأ أفكارها؟ هل أدرك أنها، لا تفهم نفسها؟ أخيرا قال:
"لا داعي للخوف لن أضربه."
استعرضت هيلين ما حدث، وهي تجلس بجوار سرير فيونا، تنتظر استسلامها للنوم. تذكرت كيف أجلس ليون الصغيرة على ركبته يهدئها في رفق ويجفف دمعها. وقوله لأليكس إن البنات جديرات بالرعاية. وانتهت الى أن ليون مزدوج الشخصية: فظ وحنون، متغطرس ومتواضع، متوسل ومسيطر. أي الحالات كان ليون الحقيقي؟ وهزت كتفيها، وقطبت حاجبيها. لماذا تحفل بمعرفة حقيقته؟ لا جدوى من الانكار إنها لا تستطيع أن تظل بلا شعور نحو زوجها.
تمتمت فيونا وهي تحاول مقاومة النعاس:
"هل سيغضب من تشيبي؟ لا بد أن يعاقبه."
فقالت هيلين:
"اغمضي عينيك يا عزيزتي. يؤسفني أنه لا بد من عقابه."
فعادت تسألها:
"ألا تستطيعين أن تقولي لعمي ألا يعاقبه؟"
فقالت هيلين:
"سيفعل عمك ما يراه صوابا."
وصمتت فيونا، واستسلمت الى النوم رويدا رويدا، فتسللت هيلين بهدوء وكان ليون وحيدا في الشرفة، فذهبت اليه. وسألته:
"أين تشيبي؟"
"في غرفته. وعليه أن يلزمها كل يوم لدى عودته من المدرسة."
قالت:
"إلى متى؟"
فأجاب:
"حتى أقرر أنه استوعب الدرس."
ونهض وأعطاها مقعده، وأحضر لنفسه غيره، وقال:
"لست أفهم هذا الولد. من أين له هذه الافكار؟"
قالت:
"الواضح أن صبية القرية لا يقمن للاناث وزنا. انهم يقتدون بآبائهم ولا شك."
قال في فتور:

"هل كان تعليقك هذا ضروريا ؟"
فنكست رأسها، ثم نهضت لتساعد آراتيه في اعداد العشاء... ولكنه ناداها متسائلا:
"اللوحة؟ هل بدأتها أم لا ؟"
فقالت:
"مجرد بداية. لا تستطيع أن تراها حتى..."
ولكنه أصر على أن يراها. فأحضرتها بخجل وقالت محرجة، وقد أشاحت ببصرها:
"لست رسامة جيدة يا ليون... قلت لك هذا."
وراحت تتأمل المرتفع المكسو بالأشجار، الذي ألف السياج الخارجي للحديقة... فقال بصوت خافت ولهجة مثقلة بالفضول:
"ما الذي أوحى اليك برسم الطاحونة القديمة؟"
واستدارت مطلة عليه من وقفتها، وهو ينشر اللوحة بين يديه يتأملها بامعان:
"إنها تجذبني على نحو غريب، فهي في بقعة فاتنة، والماء ينبثق من جانب التل!"
لم يعد يصغي اليها، وفي عينيه تعبير نصف حالم، ونصف حزين. بدا وحيدا بدرجة أليمة، وامسكت هيلين أنفاسها لسبب لا تفسير له. كان زوجها في احدى حالاته التي يبدو فيها كطفل، فشعرت برغبة لا تقاوم في أن تحيطه بذراعيها. وشعرت بدبيب غريب في قلبها. منذ فترة وجيزة، قال وفي صوته رنة أسى، بأنه يود أن يشعر بذراعيها حوله أحيانا. فتصلب جسمها، ولم تحاول اخفاء مشاعرها، لم يكن السبب نفورا أو عزوفا، إذن، فماذا؟ وأدركت فجأة أنه ما كان متصلبا، وإنما اختلاجة ترفع وكبرياء لمجرد ستر شعور الندم الذي كان يخالجها كلما دار هذا الجدل بينها وبين ليون. وأبرقت عيناها استنكارا، لماذا تشعر بالذنب؟ كان ليون هو الملوم في كل شيء، وهو الذي يجب أن يزعج الندم راحته.
وقال وهو لا يزال غارقا في أفكاره:
"كان هذا بيت جدي، كان زاخرا بالأحفاد، لكننا تفرقنا، عندما غادر كثيرون الجزيرة بحثا عن عمل في مكان آخر - كنا نجتمع قرب الطاحون في عيدي الميلاد والفصح. وفي كل عيد وعطلة... والواقع.."
وسكت قليلا، ثم قال:

"إن الطاحون ملكي، خطر لي أنك اهتديت اليها."
أجابت قائلة:
"اكتشفتها مصادفة، وأنا أتنزه مع الطفلين. كنا نهيم في هذا الدرب الصخري، وفجأة وجدناها: صورة جميلة، والماء يتلألأ تحت الشمس في انحداره على الصخور."
قال والاعجاب في ابتسامته:
"ابدعت في رسمها."
واشتد احمرار وجه هيلين وغامت عينا ليون، وهبط جفناه فأخفيا ما فيهما من تعبير. أتراها أخطأت الحكم عليه؟ كانت تتصور كلما تأملها أن في نظراته اشتهاء. وقالت أخيرا:
"من المحزن أنها خربة، تكسوها الحشائش، ألا يمكن عمل شيء لاصلاحها."
فقال:
"الواقع أنني أنوي بيعها. ومن الغريب أن تختاريها بالذات لترسميها فان فتل كان يقول - في الفترة الاخيرة - أن علينا الاحتفاظ بصورة لها على حالها، قبل أن يضيع طابعها في التجديد. والرجل الذي يشتريها ممول ثري من أبناء بلادك، أعتقد انه يعتزم ابقاء الكثير منها، لكنه سيجري طبعا تعديلات كثيرة على المكان."
أفعمت عيناها بالاسف. وخطر لها أنها غريبة الاطوار، فالتجديدات من هذا القبيل - تحزنها دائما. وقال ليون:
"إنني واثق بأنه سيحولها الى مكان جميل. من الافضل كثيرا اتاحة الانتفاع لشخص ما، لا بالمكان وحده، بل بالمنظر الطبيعي. فهو من أحسن مناظر لابيثوس."
قالت وهي تفكر وفي عينيها وميض رقيق:
"نعم... البحر والجبال... ماذا يبتغي المرء أكثر من هذا؟"
وتنهدت بعمق، ونظرت نحوه. كانت عيناه تكنان أسى، ولكن صوته اكتسب رقة وهو يقول:
"ساعجب برسمك يا عزيزتي. كنت واثقا من هذا!"
وتلقت كلامه بابتهاج لأنه لم يستأ من رسمها.

* * *

كانت عمة ليون كريسولا تقيم في بيت فسيح من

الطراز اليوناني أقامه والدها قبل ستين عاما، حين بلغ عدد أطفاله ستة عشر، مات بعضهم وتزوج الباقون أو أقاموا في أماكن أخرى.

قالت مزمجرة، وهي تفتح الباب، وتفحص هيلين من الرأس الى القدم قبل أن تنحني لتدعها وليون يدخلان:

"بدأت أشعر بأنني مصابة بالطاعون، أو شيء من هذا."

واكتفى ليون بالضحك - فلما دخلت زوجته، استدار يقدمها، فهزت العمة كتفيها وقالت:

"انكليزية؟ لا بأس، أحسبك تعرف ما تفعل."

قال في استهزاء لم تفطن اليه العجوز:

"تم الامر يا عمتي كريسولا."

وتصاعد الدم خفيفا الى وجنتي هيلين. وأمسك بذراعيها فقادها برفق الى غرفة الجلوس في أثر عمته، وهو يقول:

"حان الوقت لنحاول التخلص من هذا البيت العتيق."

قالت:

"ربما يحسن أن أموت هنا... اجلسا على الاريكة... أزيحي القطط يا هيلين، فهي تظن أنها مالكة المكان."

فابتسم ليون وقدم لزوجته المقعد الذي بدا نظيفا، وقال لعمته التي ذهبت الى المطبخ:

"لماذا كل هذه القطط؟"

قالت:

"إنها ضالة مشردة في كل مكان، وكذلك الكلاب، ولكني لا أستطيع إيواءها، فهي تنبح وأنا عجوز لا أطيق الصخب."

كانت انكليزيتها بعيدة عن الكمال، ولكنها مفهومة. وأخذت هيلين تجيل البصر فيما حولها مأخوذة، فقال ليون:

"انتظري حتى تطوف بك خلال البيت."

كانت الغرفة أشبه بمخزن كبير للغلال، رصفت أرضها بالحجارة ودعمت سقفها ألواح خشبية نخرها السوس. وكانت هناك طيور محنطة جاثمة على فروع أشجار أو أقفاص أو في أوعية زجاجية، وتبدو كأن العثة دبت في ريشها منذ سنوات. تحت الزجاج أشياء للزينة والزخارف من كعكات الأعراس. وعلى الجدران المكسوة بالخشب عشرات الصور لأعضاء أسرة كريسولا، فيما بدا. بينما شغلت القطط كافة المقاعد. واستلقى بعضها على السجادة قرب المدفأة الخالية.

بعد قليل عادت العمة كريسولا تحمل صينية عليها

ثلاثة أكواب ماء، وثلاثة أطباق زجاجية احتوى كل منها شيئا أسود غريب الشكل بحجم البيضة الصغيرة، في نهاية شوكة فضية طويلة، وانساب منها سائل سكري أسود سميك وتأملتها هيلين في ارتياب، وأحست بغثيان ولكن بايماءة حازمة من رأس ليون أنبأتها بأنها لا ينبغي أن ترفض.

لم يكن لدى هيلين فكرة عن كنهه، بينما ليون يتبادل وعمته حديثا باليونانية. ثم قطبت العمة جبينها وقالت:

"كلا... ليس جوزا."

والتفتت الى هيلين قائلة:

"تفضلي يا ابنتي."

تناولت هيلين صحنا، لكن ليون أخذه منها وأعاده الى الصينية وقال:

"امسكي كوب الماء. والآن ارفعي الشوكة واغمسي ال..."

وقطب جبينه، وعاد يسأل عمته باليونانية ثم قال:

"آه، جوز برازيلي."

وحدقت هيلين غير مصدقة، بينما قال:

"اغمسي الجوزة... كلما قضمت منها."

غصبت نفسها على تعود مأكولات الجزيرة، ولكنها لم تواجه أبدا شيئا يدعو للنفور كهذا وقالت:

"إنه اللون... ألا بد لي من تناوله؟"

فقال:

"تذوقيه."

وفعلت كما قال، ثم هتفت:

"أوه... إنه لذيذ!"

وعجب لاعجابها الذي أرضاه. وتذوق بدوره، وأخذ يستمرىء المذاق مهنئا عمته لابداعها في صنع الحلوى. وأرادت هيلين معرفة سبب غمسها في الماء، فقال:

"إنها الطريقة الصحيحة لتناول هذا الجوز، فالشراب السكري ينساب منها - وأنت تزيلينه في الماء."

قالت:

"ولكن هذا الجوز البرازيلي كبير."

فقال:

"إنه يتضخم نتيجة طريقة الاعداد."

بعد الحلوى جاء المشروب المرطب، ثم قالت العمة كريسولا:

"سأريك البيت!"
فرمق ليون زوجته مبتسما، وقال:
"لن تصدقي أنك في بيت، انه واسع وبجانب اتساعه، كان في حال مذهل من البلى."
كان هناك المزيد من الطيور والحيوانات المحنطة، المثقلة بالغبار. وفي كل مكان ايقونات أمام كثير منها أضواء حمراء دقيقة، من مصابيح كهربائية صغيرة، تتدلى أسلاكها على الأرض، وتتشابك. فهمس ليون:
"هذه أصلية تساوي ثروة."
فنظرت عمته اليه وسألته باليونانية، فقال:
"إنني أخبر هيلين بأن ايقوناتك ثمينة للغاية."
قالت وقد توقفت لتحرك النور الى وسط احدى الصور:
"لا شيء زائفا هنا، إنها عتيقة جدا."
وتوقفت مرة أخرى لتعدل رسما مائلا للقديس نيقولا، وأردفت:
"إنني أقبلها جميعا كل مساء."
وحدقت هيلين بدهشة، فأردفت وهي تتقدمها الى غرفة نوم أخرى:
"كل واحدة منها."
ولم تعد هيلين تتذكر عدد الغرف، وتعجبت أن تحتمل عجوز مثلها الاقامة في بيت كهذا. وهمست لليون:
"إنني أموت فزعا."
فقال:
"عاشت كل حياتها في هذا البيت فألفته."
"لكنها وحيدة... وهذه الايقونات ثمينة. وقد تتعرض لعدوان."
رمقها في عجب وقال:
"عدوان! هذا العنف لا يحدث عندنا. إنه نادر جدا جدا. هذا هو الفارق بين القناعة والجشع. الناس هنا قانعون، وأعتقد أن لهذا علاقة بالمناخ. فالشمس المشرقة تبعث السعادة."
كان هو نفسه يبدو قانعا، سعيدا ولكن في مسلكه شيئا من الرغبة أثار فيها الندم مرة أخرى. وفي الوقت ذاته، أحست في دخيلتها بفراغ لا تدري مصدره، ولم تستطع كبح رجفة البرودة، فشعرت بأصابعه على كتفها تتحرك مطمئنة، ثم جذبها اليه. كانت لمساته رقيقة، أتراه يكن لها بعض

الوجد؟ وابتلعت ريقها، متخلصة من توتر الجيشان العاطفي. هل تستطيع من ناحيتها أن تكن له حبا؟ وتذكرت غريغوري وكيف خذلها وهي مطمئنة اليه بثقة عمياء... كلا، لن تسمح لنفسها بحب رجل مرة أخرى. اقسمت ألا تثق برجل آخر، حتى لا تتعرض لجرح مشاعرها وللخداع.
قالت العمة كريسولا:
"كان بيتا بديعا، ولكنه الآن مهمل، فلست استطيع العناية به كما اعتدت. ربما من الواجب أن أبيعه، ولكني لا أتصور أن أنتقل منه في هذه السن."
فقال ليون:
"دعيني أبيعه لحسابك."
فسألته:
"أتستطيع الحصول على ثمن جيد؟"
فقال:
"جدا، فموقعه مثالي."
والتفت الى هيلين قائلا:
"يجب أن نأتي مرة أخرى في النهار. فللعمة كريسولا هنا حدائق بديعة، فيها كل أنواع الأشجار والزهور."
قالت العجوز:
"الحدائق... أجل، ومناظر طبيعية بديعة كذلك."
وكانت تشير بأصابعها الى النوافذ، فابتسمت هيلين اذ تصورت أن، مصاريعها الخشبية لم تفتح يوما. وقال ليون وهم يعودون الى غرفة الجلوس:
"هل ستفكرين في بيع البيت؟ سأعثر لك على بيت صغير تسهل عليك العناية به."
فسألته:
"أيكون رخيصا؟"
فضحك قائلا:
"إنك كالجميع، تريدين ثمنا عاليا لبيتك، وتأملين الشراء بثمن رخيص!"
والتفت الى هيلين قائلا:
"هكذا الامر تماما، كلما جئت، تفكر العمة كريسولا في بيع البيت ثم تغير رأيها دائما."
فقالت العجوز:
"القطط هي السبب... ماذا أفعل بها؟"

قال ليون:
"كثيرا ما قلت لك ما تفعلين."
فصاحت عمته:
"إنك قاس، بلا قلب. ألا تجدينه كذلك يا هيلين؟"
فاحمر وجهها ولاذت بالصمت. فقال:
"ألا تردين على العمة كريسولا؟"
قالت عمته:
"لا داعي، فأنا متأكدة أنك تضايق المسكينة بدرجة مخجلة."
ووضعت احدى القطط على ركبتها وقالت:
"ما رأيك في بيت ليون؟"
فهتفت متحمسة:
"إنني أحبه.. لم أر في حياتي بيتا مثله."
تجاذبوا الحديث فترة، ثم قال ليون لعمته:
"أراتيه لا تحب العودة متأخرة، فيجب أن تذهب. ما رأيك أن تزورينا؟"
"يسعدني هذا لانني لم أر الطفلين، ولكن عليك أن تأتي لتصطحبني فما عدت قادرة على المشي."
اتفقوا على أن يوافيها يوم الأحد التالي، فتتناول الغذاء، ثم يقلها ليون في الأصيل ليعيدها الى بيتها. وقال ليون، وهو يقود السيارة:
"اعتقد أنني أعرف شخصا لديه بيت يلائم العمة كريسولا. إنني مسرور لأنها فكرت أخيرا في بيع ذلك البيت العتيق."
قالت هيلين:
"إنه كبير للغاية بالنسبة اليها، انها تشغل غرفتين أو ثلاثة، والغرف الاخرى عارية وباردة... فتصورا!"

٧ - زيارة العمة كريسولا

كانت هيلين مستغرقة في عملها حتى أنها لم تفطن الى أن هناك من يراقبها الى أن سمعت صوت زوجها خلفها، وقد ارتفع على خرير الماء النازل في البركة المجاورة للطاحون. والتفتت محرجة، فإذا به يقول وعيناه مسلطتان باعجاب على اللوحة:
"هل أوشكت على الفراغ؟ ما أسرعك!"
فابتسمت متراجعة تتأمل عملها من مسافة وقالت:
"إنه التشجيع. كيف عرفت أنني هنا؟"
فأجاب:
"أخبرتني أراتيه."
قالت:
"عدت مبكرا."
قال:
"أخذ الحر يشتد في المكتب."
لم تكن فترة بعد الظهر شديدة الحرارة. كان هذا اليوم الثالث على التوالي يعود فيه مبكرا. هل كان يريد أن يكون معها. وأسرعت تستبعد الفكرة وتولي الرسم كل اهتمامها. وقال:
"التشجيع؟ كأنك لم تتلقي تشجيعا من قبل."
ولم تجب، فأدارها لتواجهه، وقال:
"هل هذا هو السبب في أنك لم ترسمي من قبل؟ لم يكن لديك ما ترينني عندما طلبت رؤية بعض انتاجك؟"
وأومأت برأسها، ولكنها لم تجب. كان غريغوري يستخف بعملها. ففقدت الثقة بنفسها. ولم تشأ أن تخبر ليون بذلك، ولكنها قالت تحت الحاحه:
"لم يكن غريغوري يعجب بأسلوبي. لم يكن يظن أن أحدا يشتري ما أرسم."
سألها:
"هل كنت تودين بيعه؟"

فتروت ثم قالت:
"ليس للنقود، ولكن من اللطيف أن تفكر في أن هناك من يشتريه. قال فيل إن الفنان لا ينظر الى المال قدر نظره للارضاء، والارضاء لا يأتي إلا بتقدير أعمالك."
وأخلد للتفكير برهة، وقال:
"هذا صحيح سيقيم فنانون محليون معرضا لأعمالهم في نيقوسيا، وسأدخل لوحتك فيه."
وأبرقت عيناها الزرقاوان، لكن البريق خفت بعد لحظة، وقالت واليأس يزحف الى صوتها:
"لن تكون جيدة بدرجة كافية يا ليون."
قال والثقة في صوته، وبريق الزهو في عينيه:
"قلت لك من قبل أن الحكم في هذا لي."
فبادرت قائلة:
"إنه كرم منك أن تشجعني، وإنني أنا أشكرك لذلك."
كان بوسع الكلمات أن تنقل مدى عمق تقديرها؟ كانت دائما تشعر برغبة قوية في الرسم. ولكن غريغوري أقنعها بأنها لا تجيده، مما جعلها تتراجع. وها هي تبدأ ثانية في ممارسة هوايتها، لتستمد متعة فيها. ومن أي مديح من زوجها. كان صوته خافتا، حنونا، فطغت عليها السعادة. ما الذي كان يجري؟ تساءلت منذ أيام... هل من الممكن أن تهتم به؟ وها هي تناضل لتمنع نفسها من أن تهتم به، لكن بدون جدوى. إن نكث ليون بوعده وقسوته ليلة خرجت مع روبرت، والتباعد بينهما، كل هذا بهت خلال تلك الأيام القلائل. وأصبح المهم أن ليون ينظر اليها هذه النظرة ويكلمها بهذه النعومة، ويلمسها بهذه الرقة."
قالت وهي تحس بحرارة يديه على ذراعيها:
"يجب أن نعود، فلابد أن الطفلين عادا من المدرسة."
قال:
"أراتيه هناك."
وتناول منها اللوحة، ورفعها. وشعرت هيلين ثانية بالسعادة الفاترة. وما هي الا دقائق حتى كانا في البيت. كانت فيونا في الحديقة مع الكلب، أما تشيبي فكان لا يزال معاقبا، فقالت هيلين في رجاء:
"أليس لتشيبي أن يترك غرفته؟ مرت ثلاثة أيام. انه يعرف الآن خطأه، ولا شك أن سيعنى بفيونا في المستقبل."

وأدهشها أن ليون استجاب لرجائها، رغم أنه ألقى على تشيبي محاضرة عندما جاء الى الحديقة. وقال ليون وهو يلاحظه أثناء لعبه مع فيونا في الأصيل:
"أظن أنك على صواب، لن يفعل شيئا كهذا مرة أخرى."
ما لبث الطفلان أن انطلقا الى التلال، وساد صمت لا يتخلله سوى حفيف النخيل. واستلقت هيلين في مقعدها، واختلست نظرة الى زوجها، كانت عيناه مغمضتين، وبدا مستغرقا في سلام عميق، وان كانت شفتاه تتحركان برفق من آن لآخر. ترى ماذا كانت أفكاره وأحاسيسه؟ خالت في البداية أن انفعالاته العاطفية غير عميقة، ولكنها أخيرا أخذت ترتاب في ذلك. وراحت تتصور المستقبل وقد أدركت الآن أن قلبها خفق له. لو أنه اهتم بها حقا، لشعرت بسعادة تفوق كل ما عرفت. ولو أن ما سمعته عن طبيعة القبارصة كان صدقا، لكانت في موقف متأرجح، لانه لن يلبث أن يسأمها.
سمعا ضحكات بعض أطفال في الغابة، فغام جبين ليون، وأرهف أذنيه، وقال:
"إنهما مع صبية القرية، ويبدو أنهم في البيت التركي القديم."
ونهض عن مقعده قائلا:
"تعالي نذهب فنتبين ما يجري."
كان قلقه على فيونا صادقا جدا. فتذكرت هيلين ما أكدته بريندا من عدم حبه للأطفال. قد يكون حازما وشديدا، ولكن عدم حبه للاطفال أبعد ما يكون عن الحقيقة.
كانت فيونا وتشيبي وأليكس واندرياس، كما توقع وكان تشيبي أول من رآهما فأقبل مسرعا وهو يقول:
"إننا لا نلعب لعبة السجن، وإنما لعبة الهنود الحمر."
وجرت فيونا الى عمها، واحاطت ساقيه بذراعيها، وقالت متطلعة الى هيلين:
"إنني أحبه كثيرا."
والتفتت هيلين ببطء، فاذا ليون يطل بحنان على الوجه الصغير الحافل بالمشاعر. ثم رفع رأسه، ونظر الى هيلين وسمعته يتمتم:
"ما ألطف أن أشعر بذراعيك حولي أحيانا."
وتلاقت نظراتهما، فاختفت آخر شكوكها. كان يهتم بها، ولن يخذلها.

قال بعد فترة، وهو يفحص وهيلين الشقوق الغائرة في المبنى:
"أظنني سأضطر الى هدم هذا المكان، فهو غير مأمون وليس فيه أي جمال!"
فسألته بدهشة:
"أهو ملكك؟"
وأومأ قائلا:
"مما ورثته."
وعادا مع الطفلين سيرا على الأقدام الى البيت.

* * *

كان هيلين وليون يتناولان العشاء، بعدما لاذ الطفلان بفراشيهما حين عاد ليون الى موضوع الاجازة، قائلا:
"اذا ذهبنا الى بافوس نستطيع زيارة أمي... ولا نستطيع الاقامة لأن بيتها لا يتسع وربما اتفقد تلك الارض التي أفكر في شرائها."
وتحمست هيلين للفكرة، فقررا أن يقوما بالرحلة بعد ثلاثة أسابيع حين يكون الطفلان في عطلة مدرسية."
فقالت هيلين:
"يجب أن أشتري بعض الأشياء الجديدة للطفلين، في زيارتي التالية لترودي."
في تلك الأثناء زارتها العمة كريسولا. وارتدت هيلين - استعدادا للمناسبة - الثوب الذي اشتراه ليون. واذ أقبلت من غرفة النوم الى غرفة الجلوس، شعرت بخجل لم تدر مصدره عندما لاحظت تغير قسماته... فقد حدق فيها باعجاب صامت قبل أن يقول:
"زوجتي الجميلة! هل أجرؤ على ضم حسناء كهذه؟"
فتقدمت منه، وأحاطته، وبعد عشر دقائق قال:
"يجب أن أذهب وأحضر العمة كريسولا، لن أغيب طويلا."
وما أن وصل مع السيدة العجوز، حتى وصلت سيارة أخرى هبطت منها آسمينا وفاسيليوس. ورمق ليون زوجته متسائلا وهو يحييهما قائلا:

"هل تبقيان معنا للغداء؟"
قالت آسمينا وهي تبتسم لفيونا إذ أقبلت عليها:
"كلا يا ليون، إنما جئنا في نزهة قصيرة."
فقالت هيلين:
"يجب أن تبقيا. فالعمة كريسولا هنا."
فهتفت آسمينا:
"هنا؟ هل استطعتما أن تخرجاها من بيتها؟ إنها ترفض الدعوات دائما."
ونظرت الى زوجها وقد استند الى السيارة يداعب مسبحته. وعبست هيلين على الرغم منها، فلاحظ زوجها ذلك. ولمعت عيناه بابتسامة.
كان الطفلان يخجلان من العمة كريسولا -في البداية- والواقع أنهما كانا يخشيانها، إذ كانت مجللة بالسواد من رأسها حتى قدمها وكان وجهها متغضنا، ويداها نحيلتين معروقتين. لم تتزوج أبدا، فتوقعت هيلين أن تضيق بالطفلين، ولكن ما حدث كان عكس ذلك، وبدأ تشيبي وفيونا يثرثران معها، وهي تستمتع بذلك.
بعد الغداء، قدمت القهوة في غرفة الجلوس. وكان ليون قد أغلق مصاريع النوافذ، فنظرت اليه هيلين بدهشة، وقالت:
"ألا نترك المصاريع مفتوحة؟ من غير المعقول أن نجلس في نور صناعي بدون سبب."
فقال:
"لندعها مغلقة حاليا يا حبيبتي، حتى تشعر العمة كريسولا بأنها في بيتها."
وتدافع الدم الى محياها لنداء الاعزاز الذي لم تتعوده منه.

* * *

لاحظت ترودي التغير الذي طرأ على هيلين حين زارها، فقالت:
"ماذا جرى لك؟"
وأردفت مداعبة، وهي تضحك:

"إنني لا أكاد أعرفك، كيف حدث هذا، بعد كل اصرارك على ألا تقعي في الحب؟"

فضحكتا معا. وقالت هيلين، وهما في المطبخ تتناولان وجبة خفيفة:

"طلب ليون أن أدعوكما لزيارتنا. نريد أن تأتيا الى العشاء، ولكننا سنرحل بعد أيام، فلنحدد الموعد بعد عودتنا."

سألتها ترودي:

"أهو شهر عسل؟"

فسرحت هيلين بصرها على الطريق وهي تتذكر الأيام التي قضتها مع ليون في فاماغوستا، ثم قالت:

"كلا، سيصحبنا الطفلان."

فوجمت ترودي وقالت:

"هل أنتما مقيدان بالطفلين؟"

فبادرت هيلين قائلة:

"إنني أحبهما... كلانا نحبهما. حرما الكثير، ولكننا نعوضهما الآن."

ذهبا بعد شراء ما أرادت هيلين الى مقهاهما المفضل. وبرغم النظرات المتطفلة المألوفة، تناولتا المرطبات. وكانت الساعة لم تتجاوز الرابعة عندما غادرتا المقهى. فقررت هيلين ألا تعود الى مسكن ترودي انتظارا لثيو، وأن تذهب الى مكتب زوجها. ومرتا في طريقهما الى موقف الحافلات بمتاجر الهدايا، وعندما تأملت هيلين احدى نوافذها، هتفت في دهشة:

"احدى لوحات روبرت. ألا ترينها جيدة؟"

فقالت ترودي:

"بلى... نسيت أن أسألك، كيف قوبلت لوحتك؟"

واحمر وجه هيلين وهي تخبرها أنها قوبلت باستحسان، وطلب منها أن ترسم منظرين على جدارين في احدى الفيلات الجديدة التي أقامها أحد الانكليز وأضافت:

"وهو معجب أيضا بانتاج روبرت، ولذلك سوف يزين جدران غرفة الطعام."

قالت ترودي:

"في البيت ذاته؟"

فأومأت هيلين برأسها. وعقبت صديقتها:

"كيف تلقى ليون الفكرة؟"

قالت:

"إنه مسرور من أجلي، فهو يدرك أنني أستمتع بالرسم."

وعادت ترودي تسألها:

"أين لوحتك الآن؟"

قالت وفي صوتها وعينيها سرور، اجتذب الابتسام الى شفتي صديقتها:

"أخذها ليون الى مكتبه وأتوقع أن يكون قد علقها."

فعقبت ترودي:

"لابد أنه يحبك، إذ يريد لوحتك أمامه طيلة النهار."

كانت المسافة الى المكتب قصيرة. عندما دخلت هيلين، نظر زوجها الى الساعة، وقال:

"هل حدث شيء. كان ثيو يتهيأ للذهاب اليك بعد حوالي نصف ساعة."

فقالت وهي تضع الرزم على مقعد، وتستقر في آخر:

"رأيت أن آتي بعدما فرغنا من التسوق."

فابتسم وهو يضغط الجرس على مكتبه:

"سأطلب لك شرابا، إذ تلوحين متأثرة بالحر. لماذا حملت كل هذه الرزم؟"

قالت وهي تتلفت حولها:

"إنها ليست ثقيلة."

لم يعلق ليون لوحتها، ترى أين هي؟ وجاء ثيو بالقهوة لليون، وشراب البرتقال لهيلين، فقال ليون وهو يلقي نظرة على الاوراق التي أمامه:

"أكاد أنتهي من عملي الآن..."

هل تذكر له الرسم؟ كلا، شعرت أن هذا ليس من الصواب. وقالت بدلا من ذلك:

"لا داعي لأن تترك عملك، فلست أمانع في الانتظار."

ولكنه قال، وهو يجمع الرزم:

"كلا يا عزيزتي. سننصرف."

أخذ الطفلان يثرثران بانفعال فرح تأثرت له هيلين، لأنها لم تعرف هذا في حياتها. ورغم أن الاستعداد للرحلة أدى الى عمل اضافي، فذلك كان مصدرا للسرور. وقالت فيونا وهي لا تكاد تقاوم اللهفة:

"يا ليت السفر يوم الجمعة فلست أطيق صبرا."

فأجاب عمها بهدوء:

"لا بد من الانتظار، فقد بقي للمدرسة يومان."

قالت:

"كم يوما ستتغيب؟"

قال:

"حوالي أسبوع، إذ أحسنتما السلوك."

كانت هيلين تبتسم وعيناها تفيضان حنانا وهما تتأملان وجه فيونا وقال ليون، في وقت لاحق:

"إنك تهتمين بهما كثيرا يا هيلين."

فقالت:

"إنني احبهما، ولكم يسرني أنني بقيت يا ليون."

فتساءل وهو يرتقب الرد متوترا:

"ألهذا فقط؟"

ابتسمت بحنان، وقالت:

"كلا يا ليون، لسبب آخر، أهم."

زارت هيلين مصففة الشعر يوم الخميس، فقالت ايليني وهي تكوي لها شعرها:

"سمعت أنك تجيدين الرسم. احدى صديقات خالتي تقتني احدى لوحاتك ... وتقول خالتي انها جميلة."

ودهشت هيلين، وقالت:

"احدى لوحاتي؟ لا بد أن هناك خطأ ما."

كانت منذ قدومها الى الجزيرة رسمت لوحة واحدة، وهي عند زوجها. ولكن ايليني تطلعت في حيرة وقالت:

"كلا، إنها رسم للطاحونة القديمة التي في لابيثوس."

وخفق قلب هيلين اضطرابا، وأخذ الدم ينحسر من وجهها. ألم يكن ليون يشجعها للمضي في الرسم؟ وهل يمكن أن يكون قد فرط في اللوحة؟ وسألت ايليني:

"ومن تلك التي لديها لوحة لي؟"

فقالت:

"إنها تقيم في نيقوسيا. بولا مكسويل. كانت زميلة خالتي في المدرسة."

توقفت ايليني عن الكلام. وهتفت:

"هل أنت بخير يا سيدة بيترو؟ هل أحضر لك بعض الماء؟"

فهزت هيلين رأسها في صمت، وقد غاض الدم تماما من وجهها، وأحست كأن قلبها محاط بثلج. إذن اعطى ليون لوحتها لتلك المرأة. لا بد أنه مستمر في لقائه بها.

ولكن، متى وقد أصبح لا يخرج في المساء منذ أسابيع؟ لماذا صدقت أنه بدأ يحفل بها. لماذا سمحت لنفسها بأن تحفل به؟

لم تدر هيلين اطلاقا كيف تماسكت حتى تم تجفيف شعرها، همت بالنهوض عدة مرات، لولا قوة ارادتها. ومع ذلك لم تشعر برغبة في العودة لبيتها ورؤية زوجها. سمحت لنفسها بأن تضعف، وأن تلين لزوجها بعدما أقسمت بألا تجازف بأن تحب مرة أخرى، وأن تعتقد أنه يحفل بها، وأنه أحبها منذ زواجهما، وإن لم يكن تزوجها عن حب.

وهاهي ذي تعرف أنه لم يكن ثمة حب، وكل ما أراده أن تكون محظية له، لقد آذى برودها كبرياءه، فصمم على أن يحظى منها، بمبادلة مهما يكن الاسلوب الذي يضطر لاستخدامه. أحست هيلين أنها تكرهه، لكنها كانت أكثر كرها لنفسها، لأنها استسلمت اليه بسهولة. وتذكرت كيف كاد يتوسل استجداء لعناقها، وكيف جعلها تشعر بالذنب. هكذا كسبها اليه، واكتسب حبها. ولكنها لم تعد تحبه. كلا، إنها تكرهه. وستكرهه بقية حياتها.

جرت قدميها جرا الى البيت، لم تكن ترغب في العودة، لكن الى أين تذهب؟ والطفلان؟ فقدا الأم والأب، وفي حاجة اليها، وتبادرت الدموع الى عينيها فكبحتها. يجب ألا يعلم ليون أن مشاعرها جرحت.

كان أمام المدخل ينظف السيارة استعدادا لرحلة الغد، حين وصلت، فهتف:

"هل حدث شيء يا عزيزتي؟ هيلين، حبيبتي ماذا حدث؟"

يا للرياء! كان قلبها كحجر أحيط بالثلج، وأهابت بها غريزتها أن ترمي في وجهه بكل ما عرفت، لكن هذا كان كفيلا بالغاء الرحلة. وما ذنب الطفلين؟ فقالت:

"ليس بي شيء يا ليون."

ودخلت البيت دون أن تزيد، فتبعها قائلا:

"بل هناك شيء يا حبيبتي، هل أنت مريضة؟"

كان لا بد أن تتظاهر حتى نهاية الرحلة، فقالت:

"إن بي صداعا، سرعان ما سأتعافى."

قال بحزم حز في أعصابها:

"يجب أن تنامي. هيا يا عزيزتي، سأعاونك."

ورفعها الى السرير، وانتزع حذاءها، وجذب الغطاء فوقها، ثم أغلق مصاريع النافذة وقال:

حاولي أن تنامي يا حبيبتي."

وما أن خلت بنفسها، حتى عجزت عن كبح دموعها، كيف فسر ليون بها هذا؟ لكم أطرى رسمها، وألح في عرضه. كيف بدا صادقا حين قال أنه يريده في مكتبه! فليستمتع بفوزه فترة، ثم يفيق، وليذهب اذ ذاك الى بولا مكسويل، لأن هيلين لن تجعله يقربها ثانية!

كان ليون يجلس بجوار الفراش حين استيقظت، فسألته أن يفتح مصاريع النافذة، فقال:

"لقد هبط الظلام يا عزيزتي."

وأضاء النور الكهربائي وهو يضيف:

"أتشعرين بتحسن؟"

ما أبرعه في صبغ صوته بالاهتمام والقلق! فقالت:

"إنني بخير... كان مجرد صداع."

فقال:

هل أنت متأكدة؟"

أجابت:

"كل التأكيد، سأنهض الآن!"

لا شك أن الصدمة جعلتها شاحبة، وصرفتها عن العشاء، وكان قلق ليون واضحا، فامتلأت نفسها مرارة وغيظا، لو أن شعوره كان صادقا لزحفت الى ذراعيه، والتمست عزاء على صدره!

* * *

استيقظ الطفلان في السادسة صباحا وأقبلا يركضان، لكن ليون لم يكن راضيا، وسألها:

"هل تشعرين بأنك قادرة على الرحلة؟ إذا لم تكوني قادرة فلن نقوم بها."

وضمها اليه بالرقة المألوفة. كيف يكون بهذا الرياء؟ هل هناك تفسير محتمل؟ حتى إذا كان يحب بولا، ما الذي يضطره لاعطائها لوحة زوجته؟ وأحست هيلين بيده تربت وجنتها برفق وحنان. هل تسأله عن اللوحة؟ هل يمكن اجلاء هذا الغموض بايضاح بسيط؟ لو كان مذنبا، فسيدب بينهما

شقاق، هذا ما حرصت على تفاديه اكراما للطفلين.

* * *

قضوا اليوم الأول مع أم ليون، ثم انتقلوا بعد العصر الى فندق في كتيما، عاصمة منطقة بافوس الحديثة، وكان المساء جميلا، صافي السماء، والهلال يمخر عبابها فوق البحر. وخلفهم سفوح جبال ترودوس. كان البحر هادئا، وسارا على الشاطىء في صمت - بعدما أوى الطفلان الى الفراش- أخذت هيلين تسائل نفسها: ترى هل أحس ليون بنفورها؟ فهي برغم محاولاتها لم تكن تقوى على النظر اليه، أو مخاطبته بتلك الرقة التي أصبحت أخيرا طبيعة لها. اذا فطن لتغير فانه لم يقل شيئا، ولعله حسبها لا تزال متأثرة بصداع الأمس.

قطع الصمت أخيرا، قائلا:

"ما أهدأ البحر. سنقضي الصباح على رمال الشاطىء، وفي السباحة. وفي الأصيل، ننطلق بالسيارة الى غابة بافوس."

فقالت:

"هل هي جولة ممتعة للطفلين؟"

فضغط يدها برفق قائلا:

"ستروق لك. ليست الجولة للطفلين فحسب كما تعرفين."

وتطلعت اليه تحاول كشف أساريره. لكن الظلام لم يمكنها. كيف يستطيع تمثيل دور كهذا؟ وفجأة عادت اليها ذكرى غريغوري. ظل عاما كاملا يخدعها ببراعة، بدون أن تساورها لمحة شك. ظل سلوكه كما عهدته، لا كلمات حنان، ولا قسوة، ولا مشاجرات. وها هو ذا ليون يحذق فن الخداع، حتى لتعذر أن تصدق أنه كان يخدعها.

كانت الرحلة للطفلين مغامرة عظيمة، رغم أنها كانت لهيلين محنة مرهقة. كان الطفلان بحاجة الى تغيير رتابة حياتهما، ولو أنها خيبت رجاءهما لما صفحت عن نفسها أبدا، لكن شقاءها كان يفوق أحيانا ما تحتمل. فلم تستمتع بلحظة واحدة. وقضوا الصباح الأخير على الرمال، عند خليج صغير جميل، في غرب بافوس. كان تشيبي يستطيع

السباحة، وليون يعلم فيونا في كل فرصة. ولوحت الشمس بشرة الطفلين وتألقا بالصحة.

قالت فيونا وهي تتكىء على عمها في توسل:

"ليتنا لا نرحل. ألا نستطيع البقاء يوما آخر؟"

فقال:

"يؤسفني ألا نستطيع يا فيونا، ولكننا سنأتي ثانية. ربما بعد بضعة أسابيع."

ونظر الى هيلين يسألها:

"ما رأيك؟ أتودين هذا؟"

قالت:

"نعم."

ونكست رأسها لتخفي عبوسها... أبدا، لن تستطيع احتمال عذاب كهذا مرة أخرى. فضلا عن أنها اعتزمت أن تخبر ليون - عند العودة - بما علمت.

قال:

"لا يبدو أنك حازمة يا هيلين. ألم تستمتعي؟"

لاحظت أن عبارات الاطراء اختفت في اليومين الأخيرين، وأنذرها عودة الخشونة الى فمه وعينيه بأنه أحس بأمر ما. ولكنها قالت كاذبة عندما لمحت القلق في عيني فيونا:

"بل استمتعت... أعتقد أننا جميعا نعمنا بوقت رائع."

ولم يفطن الطفلان الى شيء في لهجتها، لكن نظرات ليون ازدادت حدة. وقال تشيبي:

"نعمنا بوقت ممتع. هل تعدنا بالحضور مرة أخرى يا عم ليون."

وقال ليون:

"نعم أعد."

لم تفارق عيناه زوجته. كأنما كان يخبرها بأنهم سيعودون في اجازة أخرى، شاءت أو لم تشأ. واشتد خفقان قلبها. كانت قد اطمأنت الى أن الامور تسير على هواها. وأن بوسعها أن تملي شروطها بعد ما اكتشفت تفاني زوجها. هل يقدر لهما أن يعودا الى الوضع الذي كان قائما قبل أن تتعود الاهتمام بليون؟ كان فمه منطبقا في حزم وعيناه ترسلان ذلك الوميض البارد الذي كانت ترتجف له في أكثر من مناسبة.

هل خالجها الامل حقا؟ ولو - للحظة واحدة - في أن تملي ارادتها على هذا الاجنبي الأسمر الصارم الذي كان زوجا

لها؟ كلا، بل تقبلت الحقيقة بقلب مثقل، واعتزمت أن تروض نفسها على تسلط ليون وتسير الحياة كما كانت من قبل تماما.

٨ - نعم ... كنت مع روبرت!

رغم أن هيلين اعتزمت ابلاغ ليون بما اكتشفته بصدد الرسم، رأت أن ترجىء ذلك باستمرار. وكان السبب - كما اعترفت - هو الجبن، فقد خشيت شجارا مع زوجها، إذ أعطاها مثالا لغضبه، وللقسوة الناشئة عنه. ولكن احجامها خلق موقفا من نوع آخر، بطبيعة الامر، إذ لم يجد ليون سببا للتغير التام في مسلكها نحوه. واحتملها لفترة بسيطة، وتولاها شعور غريب بأن الكبرياء هي التي تمنعه أن يسألها عن سبب التغيير على أنه في آخر الامر عالج الموضوع. ومع أنه - في بادىء الامر - سيطر على طباعه، إلا أن الخشونة لم تكن خفية. وكانا قد فرغا من غذائهما، والطفلان يقضيان بضعة أيام لدى فاسيليوس وأسمينا، في عطلتهما الصيفية الطويلة.

كانت تقرأ، فأخذ الكتاب منها بدون انذار، وطوح به الى المنضدة وقال:

"أريد ايضاحا يا هيلين. أظن هذا حقي؟"

قالت وهي لا تدري لماذا ترتجف، فما كان يملك أن يؤذيها:

"إيضاح؟ لست أدري ما تعني يا ليون."

قال وهو واقف وعيناه تغيمان بغضب متزايد، وإن ظل مسيطرا على طبعه:

"أتنكرين أن تغيرا طرأ عليك؟ هل تنكرين إنك لم تعودي راغبة في؟"

فرفعت ذقنها قائلة:

"راغبة! ما رغبت فيك أبدا."

"لا تكذبي. كنا سعيدين لفترة قصيرة، فما الذي حدث؟ هذا ما أطلب أن أعرفه. التغيرات التي من هذا القبيل لا تحدث بدون سبب قوي. أخبريني بالسبب، نستطيع أن نناقش الأمر، ونبث في الخلافات التي بيننا."

لم تثر كلماته سوى مرارة بدت في قوس شفتيها، وازدراء بدأت تشعر به نحوه. يا للهدوء الذي طلب به ايضاحات

وهو على علاقة مشينة بحبيبته السابقة. تمنت أن تخبره، وتجازف بالتعرض للعواقب، ولكنها كبحت أفكارها فجأة. كانت قد مكنته من أن يرى حبها. وفرح سرا بانتصاره. فعندما أرغمها على حبه حقق رغبته في أن تبادله مشاعره. ولو صارحته الآن بالحقيقة، لاعتقد طبعا بأنها لا تزال تحبه، واستنتج بأن التغير الذي أصابها نجم عن جرح وخيبة، وما كان هذا ما تبتغيه... وشرعت تقول:

"ما زلت لا أفهمك. عقد زواجنا بدون حب من الطرفين. ومضينا على نحو محتمل يا ليون، ولا أستطيع أن أري لك ما تشكو منه."

ازدادت نظرته حدة كالفولاذ فقال:

"لم تجيبي عن سؤالي: ما الذي أحدث التغيير المفاجىء؟"

فسألته وفي صوتها هدوء وإن كان قلبها يدق بقوة:

"أي تغيير؟"

فصاح وراحتاه تنقبضان وتنبسطان:

"لا تراوغيني! أجيبي وإلا هززتك حتى تجيبي، أحببتني لفترة وجيزة."

وبرغم خوفها، قالت:

"أحببتك؟ كيف توصلت لهذا؟ لأنني استجبت لك؟"

كانت تود أن تؤلمه، لا لما فعله بها فحسب، وإنما لما فعله لغريغوري كذلك. واستأنفت:

"من المؤكد، أنك لا تعلق على هذا أية أهمية."

أخذ الغضب المعتم يزحف على محياه، وكان انطباق فمه وقسوة نظراته تنذرها ولكنها عميت عن الخطر لحظة لتجرح كبرياءه، وعادت تقول:

"أما التغيير، فالمرء لا يستطيع الاستمرار في التمثيل، كما أن المرء لا يلبث أن يسأم."

وسكتت، وساد صمت رهيب. ونهضت مترنحة وحاولت الوصول الى الباب، ولكن قبضة ليون اشتدت على رسغها، وبدفعة أعادها لمكانها والألم يسري الى كتفها.

"إذن فهكذا كان الامر؟ كان تمثيلا. أهذا ما تقولين؟"

قالت:

"إنك تؤلمني يا ليون."

ولكنه بدا للحظة عاجزا عن السيطرة على نفسه، وراح يهزها بغير رحمة، وهو يقول:

"كان تمثيلا؟ ستندمين على هذا ما حييت. ما من امرأة تخدعني وتفلت من عقابي."

وغاض الدم من وجه هيلين، وراح جسمها يرتجف. ولكن اليقين بأنها حققت غايتها بزغ خلال غمام الخوف. كان يعتقد بحق أنه مخدوع، وأنها كانت ضجرة خلال معاشرته. أية لطمة لكبريائه! ليصب عليها نقمته. فانتقامها هذا يستحق ما تعاني - وتطلعت بنظرة خاطفة - كانت شفتاه منفرجتين كوحش يزمجر. وتوقعت أن تتعرض لقسوته البدائية ثانية، ولكنه - لذهولها وارتياحها - دفعها عنه، وغادر الغرفة - وبعد لحظات، سمعت صوت باب السيارة يغلق وضجيج المحرك يتباعد.

جلست على مقعد، واسندت وجهها الى يديها وهي ترتجف وقلبها يخفق بشدة حتى لتكاد تسمع خفقاته. كان البيت هادئا. وفجأة شعرت برغبة ملحة في أن تغادره. لكن، الى أين تذهب؟ ولأول مرة فطنت الى أنها بعيدة عن أصدقائها. ما كان لها أحد هنا سوى أقارب زوجها، وترودي. لكنها ما كانت تستطيع الذهاب الى ترودي لأنها ستشعر في الحال بأن في الأمر شيئا.

استغرق روبرت فترة قبل أن يجيب نداءها الهاتفي - معتذرا بأنه في المرسم الذي أقامه لنفسه فوق سقف منزله. وقال:

"كنت أعتزم الاتصال بك، فان السيد كرولي - ذلك الانكليزي - ارسل لي مفتاحا لبيته - وسألني أن أتصل بك لنشرع فورا في الرسم، اذ يأمل في أن ينتقل الى البيت مع الخريف."

وامسك لحظة ثم أردف:

"ما أحسبك خالية الآن، فاحضر اليك."

قالت:

"بل تعال يا روبرت، فاني أود أن أراك وأناقش ما علينا عمله للسيد كرولي. أتقول أن بوسعك الحضور فورا؟"

"نعم. لكن زوجك؟ لدي فكرة بأنه لا يحبني كثيرا!"

وخيل اليها أنها ترى الابتسامة على وجه روبرت العريض، الطيب - فقالت بهدوء:

"ليون في الخارج، ولا أتوقع عودته حتى أواخر الليل."

وسادت لحظة صمت، ثم قال:

"إذن سآتي بعد نصف ساعة، وسأحضر المفتاح

معي، ونستطيع الانطلاق لنرى ما يمكن عمله في الفيلا."

وتردد قليلا، ثم أردف:

"لعلنا نستطيع الذهاب لمكان نتناول فيه الشاي."

وصل روبرت في الوقت الذي حدده بعد نصف ساعة تماما. وبينما كانت هيلين في المطبخ لتحضر بعض المرطبات، سمعت رنين الهاتف، وخفت لتجيبه، فأدهشها أن ترى روبرت ممسكا بالسماعة. وزادها دهشة أنه احتفظ بها بدلا من أن يسلمها اليها. وكان صوت المتكلمة مرتفعا، فسمعت هيلين كل شيء بوضوح: "... وسنذهب في سيارتك يا ليون... أحضر بعض الفطائر أيضا، وقنينة شراب. فستكون في العراء أحيانا، وأنت تعرف مدى صعوبة الحصول على شيء هناك"..

وانقطع الصوت، فغطى روبرت السماعة براحة يده، وهمس وهو يرمق هيلين وعلى وجهه أغرب تعبير:

"غرام قديم لزوجك... بولا مكسويل... تظنني ليون، فماذا أفعل؟"

تناولت هيلين السماعة وهي متماسكة برغم شحوبها، وقالت بأدب:

"أنا السيدة بيترو. يؤسفني أن زوجي غير موجود."

وانتظرت، وهي تعجب هل انقطع الاتصال. ولكن بولا تكلمت أخيرا بصوت اهدأ:

"أتقولين أن ليون غير موجود؟ هل لديك فكرة عن موعد عودته؟"

فأجابت هيلين وقد خفق قلبها، عندما تذكرت أن ليون استغرق وقتا كافيا لبلوغه نيقوسيا، اذا كانت مقصده:

"كلا، للأسف. هل أنقل اليه رسالة ما؟"

"كلا، شكرا. سأتصل به... آه، إنه هنا الآن."

وبعد صمت وجيز قالت بولا:

"من الرجل الذي أجابني يا سيدة بيترو؟"

كان الصوت خافتا وناعما، فشعرت هيلين بخوف واستنكار - وقالت:

"هذا أمر يعنيني يا آنسة مكسويل."

وأتاهما الرد متلكئا:

"فليكن... لكن لا تخافي فلن أقول كلمة لزوجك!"

قال روبرت معتذرا:

"رفعت السماعة بحركة تلقائية. حاولت أن أقول انني

لست ليون، لكنها مضت في الكلام...»

وأضاف وقد تسللت لصوته نبرة غريبة:

«بمجرد أن ذكرت اسمها تذكرت بولا مكسويل، التي كانت تصاحبه كثيرا قبل أن يتزوجك.»

خرجت كلماتها بصعوبة، إذ جف حلقها:

«أيعرف كثيرون بأمرها؟»

قال مترددا:

«كانا صديقين حميمين لدرجة بالغة.»

وتبعها عندما عادت الى المطبخ، وقال:

«ليس هذا من شأني، لكن ما الذي يجري بحق السماء؟ اذا كان راغبا فيها، فلماذا تزوجك؟»

وتمالكت نفسها، وأخبرته عما دعاها وليون للزواج، فأطلق صفيرا يعرب عن دهشة، وهو يحدق فيها، لا يصدق ما يسمع.

قال وهو يتناول الكوب التي قدمتها اليه، وجذب لها مقعدا ليجلسا في الشرفة:

«إنك هادئة جدا... لا حب من الطرفين؟»

قالت:

«هذا صحيح... لا حب من الطرفين.»

وأرسلت نظرها الى البحر، فاذا به هادىء الامواج. وحولت بصرها الى الجبال، فاذا دروب صخرية وعرة تتخللها، اذا سلكتها وجدت نفسك في العراء... ترى أين هما الآن؟ أهما في الطريق الى مكان اعتادا التردد اليه؟ قد لا يكون في الجبال، فالجزيرة مليئة بالأماكن المنعزلة... الشاعرية.

قال وهو يقف خارج غرفة النوم ريثما تتهيأ للخروج:

«ما رأيك في قضاء مساء طويل، وسهرة؟ نستطيع أن نتأمل البيت ونتبين ما ينبغي أن نفعله، ثم نذهب للسباحة، وننتهي الى تناول العشاء في مكان ما؟»

ارتدت الثوب الذي ابتاعه لها ليون، فانطلقت من فم روبرت تعابير الاعجاب وهو يتأملها. وكان تعليقه الوحيد:

«بعض الرجال حمقى!»

××××

كان البيت، فيلا، بيضاء جميلة، على جانب التل فوق كيرينيا. وبدا واضحا أنه لم يكن للمال قيمة في تصميمها. وهتفت هيلين وقد نسيت شقاءها وراحت تتأمل ما حولها:

«ستكون جميلة اذا ما اكتملت. أين نضع رسومنا؟»

وكانت الارشادات لدى روبرت. فقال وهما يسيران ليتبينا الاماكن:

«سوف نسعد بهذا العمل. نستطيع أن نؤديه معا. أوافيك بالسيارة صباحا لأقلك ذهابا وإيابا.»

وتساءلت في نفسها عما يقوله ليون في تدبير كهذا؟ من المؤكد أنه لن يقره، ولكن إقراره لم يعد يهمها.

«ستكون اللوحات الزيتية على الجدران متعة، إنني متلهف للبدء، متى تستطيعين البدء يا هيلين؟»

«في أي وقت. وإن كنت لا أدري كيف أذهب عندما يكون الطفلان في البيت. إذا عادا الى المدرسة، بوسعي الحضور كل صباح، إلا في العطلات الاسبوعية طبعا.»

«إذن، نستطيع البدء فورا.»

واتفقا، قال روبرت:

«هناك مقهى صغير بديع على السفح، على مقربة من هنا، نستطيع تناول وجباتنا فيه. ستكون تسلية مرحة يا هيلين.»

هل ستشعر بالمرح مرة أخرى؟ عملها الآن سيكون مجرد شاغل يساعدها على نسيان الشقاء الذي في قلبها.

ذهبت مع روبرت الى جزء منعزل من الشاطىء، يبعد ستة أميال عن كيرينيا، فقضيا ساعتين في الماء وتحت الشمس على الرمال الذهبية. غير أن أفكارها طيلة الوقت كانت مع ليون وبولا. ماذا كانا يفعلان؟ وأعاد الماء والرمال الى ذهنها ذكرى مناسبة أخرى، حين كانت وليون على رمال فاماغوستا وأمسك بيدها بحنان، وراحا يمشيان على حافة الماء. لم تدرك عندئذ أنها أوشكت أن تحبه، ومع ذلك استمتعت بصحبته، وانبثقت في اعماقها بداية سعادة غامرة. ولكنها ولت!

قال روبرت بعد نصف ساعة:

«ما رأيك في بعض الشاي، وجولة في الريف، ثم العشاء؟»

وقال بعد أن بدلا ثيابهما في السيارة، كل بدوره - ونسقت شعرها:

«هل نتناول الشاي في الميناء، أم تفضلين مكانا أكثر عزلة؟»

وفضلت مكانا أكثر عزلة، فكانت الميناء تعج بالناس بعد ظهر أيام الأحد. ثم انطلقا في السيارة - بعد الشاي - خلال التلال حتى إذا هبط الظلام، اقترح روبرت مطعما معروفا. وترددت هيلين فبادرها قائلا:

"من الممكن أن يشاهدنا أحد، أينما ذهبنا. ما رأيك في المجيء الى مسكني، ونعد وجبة لنا؟"

ترددت هيلين ثانية، لكن العودة الى منزلها معناه أن تقضي الأمسية وحيدة. لذلك ذهبا الى مسكنه. وقال روبرت:

"إنه صغير جدا، ولكني أرتاح اليه. لم أكن أملك مالا كافيا، ولا أزال - في الواقع - أجري فيه التجديدات. على أنه مريح، كما أن لدي ثلاجة."

صاحت هيلين اذ دخلا البيت:

"أراك أبدعت فيه!"

كانت في المطبخ، ووراء قنطرة بيضاء مرتفعة، كانت غرفة الطعام الصغيرة - في جزء أشبه بفجوة في الجدار - وأردفت:

"إنني أعجب بهذه القنطرة والسقف. لم أشاهد من قبل أحد هذه السقوف التركية المصنوعة من الحصير."

فقال:

"ليس حصيرا، إنه غاب مجدول وليست الاعمدة سوى جذوع شجر جردت من قشرتها. وهنا الحمام، وهذه دورة مياه صغيرة."

وتبعته هيلين وهي تتساءل:

"أين غرفة الجلوس، اذ لم تعد هناك أبواب أخرى."

وأخيرا قال:

"الآن الى الطابق الأعلى."

وصعدا درجات سلم حلزوني ضيق، فاذا هناك غرفة واحدة، أثثت كمخدع وغرفة جلوس. وضحك روبرت وهي تتأمل المكان وقال:

"أشعر كأنني حافظت على مبنى أثري عتيق. إن عمر هذا البيت مئات السنين."

قال يدعوها:

"تعالي اريك مرسمي. يجب أن تجتازي هذه النافذة، وتصعدي سلما متنقلا لكنه مأمون."

كان المنظر مثيرا للاعجاب. وهتفت وهي تطل خلال

النوافذ الواسعة المنخفضة على الجبال المحيطة والبحر:

"لا عجب في أنك تستطيع الرسم هنا فالمكان هادىء جدا."

هبطا فقادها روبرت الى الثلاجة وقال:

"اختاري ما تريدين، ريثما أعد المائدة."

كانت هناك عدة أنواع من اللحم وكثير من الخضر الطازجة. وسألته:

"هل سنضطر لطهو شيء ما؟"

فقال:

"كلا، لا طهو وأنت في هذا الثوب البديع. لنكتف بلحوم باردة وسلطة."

استمتعت هيلين بالطعام، لدهشتها. كان روبرت أنيسا طيبا، كما أعطاها انطباعا بأنه عميق التفكير. واعجبها أنه لم يذكر ليون مرة أخرى، ولا الظروف الغريبة لزواجها منه. فاستطاعت أن تحتفظ بحياتها الشخصية على حدة. ومع أن خروجها معه كان تصرفا يتسم بالتحدي، فلم تكن راغبة في تحمل مشاجرة أخرى مع ليون، بعد الذي جرى بعد الظهر. لذلك طلبت من روبرت في الساعة التاسعة أن

فارقها روبرت عند باب الحديقة. وكانت الفيلا غارقة في ظلام دامس، فارتاحت لذلك. وأوت الى فراشها مباشرة. في الصباح التالي، خرج ليون مبكرا، فتأهبت هيلين لانتظار روبرت، بعدما ساعدت آرائيه في الاعمال المنزلية.

أقبل روبرت في الساعة التاسعة. وقاد السيارة خلال الطريق الطويلة، فوصلا الى العاصمة بعد العاشرة واستغرقا أكثر مما توقعا في شراء لوازمهما للرسم، فاقترح روبرت أن يتناولا الغذاء في نيقوسيا. وذهبا الى الهيلتون. وكانت أول من رأت هناك، بولا مكسويل، جالسة الى مائدة لشخصين، في أحد الاركان. وشعرت هيلين أن قلبها يقفز من مكانه. وتذكرت المناسبة التي رأت فيها زوجها وبولا هناك لتناول الغداء.

قالت متلعثمة وقد أدركت أن بولا رأتها وأخذت تتفرس في مرافقها باهتمام:
"هل تمانع في الذهاب لمكان آخر يا روبرت؟ إن بولا هنا... مع... زوجي؟"
فقطب جبينه وقال:
"بولا وليون؟ هنا؟ ما أدراك بأنها مع ليون؟ انني لا أرى أثرا له. وإذا كان له أن يتناول الغذاء معها، فلي أن أتناوله معك."
وكاد يدفعها دفعا الى المقعد، فلم تبد احتجاجا آخر، إذ كان بوسعها - برغم المسافة بينها وبين بولا - أن ترى ابتسامة على وجهها فشعرت بأنها تعجب من ارتباكها. وظلت تراقب المائدة الاخرى بقلب خافق، انتظارا لظهور ليون. ولكن الرجل الذي وافى بولا كان أكبر سنا من ليون، وجلس في مواجهتها، وجذب بعض أوراق من جيبه، فمالت بولا، وأخذا يفحصانها معا. فتمتمت:
"يا لغبائي! إنه ليس ليون."
قال روبرت:
"هل رأيت؟ لم يكن هناك ما يدعو لهذا الفزع. أظنه عميل لها، فهي سمسارة عقارات."
وعادت عيناها تتأملان بولا. كانت فاتنة حقا، ولكن شيئا من الاعتداد فيها كان يضفي عليها مسحة غطرسة. كانت مناسبة تماما لرجل مثل ليون وسمسارة عقارات، فهما يشتركان في الكثير.
في طريق العودة، مرا بالبيت الذي كان عليهما العمل فيه، فتركا الدهانات التي اشترياها، وقاما بقياس الابعاد تمهيدا للشروع في العمل، الصباح التالي.

* * *

كان ليون في البيت حين عادت هيلين، فتطلع من فوق صحيفته وسألها أين كانت... قالت:
"في نيقوسيا لشراء بعض الدهانات لذلك البيت."
فسألها:
"لماذا لم تأت الى المكتب وتعودي في السيارة معي؟"

بكل هدوء سألها وهو يعلم تماما أنها ستتعجب في نفسها مما جرى للوحتها. أي عذر كان سيبديه لو أنها سألته عنها؟
قالت:
"اصطحبني روبرت الى المدينة. كان عليه هو الآخر أن يبتاع دهاناته وتركناها في البيت."
كان هذا أول حديث يتبادلانه منذ خرج غاضبا بعد شجارهما بالأمس. وكان فمه مطبقا، فجمعت هيلين أطراف شجاعتها توقعا لما كان مقدرا أن يحدث. هل قدر للحياة أن تكون هكذا دائما؟ أن يستطيع ليون أن يثير خوفها كلما فعلت شيئا قد لا يحبذه؟
"في أي وقت ذهبتما الى المدينة؟"
فتحركت الى مقعد في الطرف الآخر من الغرفة، بعيدا عنه، قالت:
"جاء روبرت ليصطحبني في الساعة التاسعة."
فنظر الى الساعة حول رسغه. وغص حلق هيلين وعيناها تتجهان الى ساعة الحائط. وقال:
"هل كنتما معا طيلة النهار؟"
وتحشرج صوتها وهي تقول:
"الواقع... ليس..."
فقال بصوت خافت:
"إنها الخامسة والنصف الآن."
"كان يجب أن نذهب الى البيت لنترك الدهانات."
وطوى صحيفته ووضعها على المنضدة الصغيرة. وبدأت يداها تختلجان بحركة عصبية، وقالت:
"كان علينا القيام بعمل تمهيدي، لأننا سنبدأ في الصباح."
فقال:
"مع هذا الانكليزي؟"
قالت:
"مع روبرت... نعم يا ليون..."
وسكتت عندما لاحظت الخيوط البيضاء، الدقيقة تزحف تحت سمرة وجهه - ثم أردفت:
"كلانا لدينا عمل في البيت، فمن الطبيعي أن نكون هناك معا."
"وأحسبك تتوقعين أن تكوني مختفية طيلة اليوم؟"
وقف - واجتاز الغرفة نحوها وقال بهدوء:

"عدلت عن رأيي بصدد السماح لك بأداء هذا العمل. بوسعك أن تكتبي للسيد كرولي وأخبريه أنك لن تساعديه."

اتسعت حدقتاها غير مصدقة، وقالت:

"أكتب؟ أتتوقع مني أن أفعل ذلك؟ أن أتخلى عن وعدي بعدما وعدت؟"

وهزت رأسها، وأردفت:

"لا أستطيع يا ليون. بحثت الأمر معك في البداية، حين سألني أن أقوم بالعمل، فلم تعترض إذ ذاك."

"تغيرت الظروف."

"كيف تغيرت؟"

فسرى في عينيه وميض قاس، وقال باقتضاب:

"ما أظنني بحاجة لأن أجيب."

واستأنف بعد برهة:

"أنا مصر على ما أقول. لا تقومي بهذا العمل. أتفهمين؟"

واعتدلت في مقعدها قائلة:

"كلا يا ليون لا أفهم."

كان صوتها خافتا وثابتا. وقابلت نظراته بدون أن تطرف عيناها، وهي تضيف:

"أنا أرفض تلقي أوامر هذه منك. لي حق في قدر معين من الحرية، وسأرضي نفسي به. أعطيت السيد كرولي وعدا، وسأفي به."

وبدأت عينا زوجها تتقدان لكن هيلين عقدت العزم على ألا تذعن هذه المرة. كان للعمل أهمية في أي حال حتى يساعدها على أن تنسى -ولو لبعض الوقت- الألم وخيبة الامل اللذين كان هو السبب فيهما، وأضافت بتحد واضح:

"سيأتي روبرت في الصباح... وكل صباح أثناء غياب الطفلين... وسأذهب معه. إنني آسفة اذا لم ترتح لفكرة عملي معه. ولكن لا حيلة لك في ذلك."

خيم صمت الذهول على الحجرة، وبدا للحظة أن تحديها تجاوز قدرة ليون على ضبط النفس. كان في عينيه وعيد، وتحركت يداه وكأنهما تتحركان للضرب. وبرغم تظاهر هيلين بالشجاعة، احست برجفة أعصابها تتجدد. ثم انحسر غضبه ليحل محله تصلب أكثر وضوحا، مما أقنع هيلين بعقم جهودها في التحدي. كان مصرا على فرض إرادته، وأخذت تسائل نفسها عما اذا كان يدبر ليفرض عليها الرضوخ لارادته،

لم يكن يستطيع منعها من الخروج مع روبرت، في الصباح، الا بحبسها. سألها أخيرا بصوت خافت:

"هل هذا هو قرارك الأخير؟"

فأومأت في تعاسة. لكم اختلف الموقف عما توقعت حين رجاها السيد كرولي أن ترسم له. كانت سعيدة جدا، وبدا ليون فخورا بها. حتى ومضة استيائه لفكرة عمل روبرت معها زادت من سعادتها، فقد اعتبرتها غيرة. وغص حلقها، فصعب عليها الكلام، ولكنها استطاعت أخيرا أن تقول:

"لا بد أن أؤدي العمل يا ليون، لا لأنني وعدت فحسب، بل لأنه سيمنحني متعة."

ضغط على أسنانه، وازدادت حالة صلابته وهو يحدجها برهة، وعيناه تنمان عن تفكير. ثم قال:

"متعة؟ إنك ستستمتعين بقضاء اليوم كله في ذلك البيت مع صديقك الذي من انكلترا. هل أفهم أن هذا ما تقولينه لي؟"

"إنك تعلم أنني لم أقصد ذلك. إنني استمتع بالرسم. وكنت أتطلع الى أداء هذا العمل."

نظرت اليه، ولكنه لم يتأثر لبادرة الدموع في عينيها، وقال:

"أعتقد أنني أنذرتك -في مناسبة سابقة- بأنني غير مستعد لأن يرتبط اسم زوجتي باسم هذا الروبرت. كنت جادا عندئذ، وأنا جاد الآن. إما أن تنفذي رغبتي طائعة، أو أتخذ الاجراءات لأكفل انصياعك... الاختيار متروك لك وحدك."

احتقن وجهها غضبا، وصاحت:

"لن أقبل أوامرك خاضعة. أما اتخاذ اجراءات تكفل أن أتخلى عن العمل ففكرة سخيفة! إنك لا تستطيع أن تحبسني في البيت."

فوافقها قائلا بصوت خافت:

"كلا يا عزيزتي. لم أفكر في هذا."

وغادر الغرفة بدون أن يزيد كلمة. وسمعت صوت السيارة تنطلق مبتعدة.

كانت في المطبخ تساعد آراتيه في اعداد العشاء، حين سمعت صوت السيارة مرة أخرى. وفي الحال اندفع الطفلان داخلين. ووثبت فيونا تحتضنها بشدة قائلة:

"عمتي هيلين! أحببنا العمة آسجينا، ولكنا سررنا كل السرور حين جاء عمي ليون ليأخذنا."

وقال تشيبي بتأكيد:
"لن أبتعد عن البيت ثانية... بدونك."
وتحول الى عمه قائلا:
"لا تدعنا يا عمي ليون!"
اطل عليه ليون مبتسما وقال:
"كلا يا تشيبي. لن أدعكما تبعدان ابدا."
وأردف في حيرة:
"لقد ظننت أنكما كنتما سعيدين!"
فبادرت فبونا، وكأنها أدركت أنهما لم يقدرا كرم ضيافة آسدينا:
"بل استمتعنا... لكننا نحبكما أنتما الاثنين أكثر مما نحب الجميع ولهذا أردنا أن نأتي."

٩ - الزوجة آخر من يعلم

رت الأيام متثاقلة، فالطفلان يلعبان خارج الدار معظم الوقت، وسخط هيلين على زوجها يتزايد حتى بلغ قسطا هائلا. بأي حق يسيطر عليها هكذا؟ كانت انكليزية، وليست جارية لا هم لها سوى الاعتناء بزوجها والاطفال. كان من حقها وقت فراغ تمارس فيه هوايتها، بجانب هذا، كيف يقضي ليون كل الوقت في الخارج ويتركها مع الطفلين؟ حتى يوم الأحد كان يخرج وبالطبع كان يصاحب بولا مكسويل. وعندما اشتكت من تركها وحيدة، ذكرها بأنها موجودة لرعاية الطفلين، في المقام الأول.

ولكي تجبره على البقاء في البيت، ولو لأمسية واحدة، دعت ترودي وتاسوس للعشاء. كانا قد زارا الفيلا مرة وزارتهما هيلين وليون والطفلان مرة، وانسجم تاسوس وليون، فلم تتوقع هيلين لحظة أن يرفض زوجها البقاء في البيت، عندما أخبرته بالدعوة. لكنه قال بفتور:
"مساء غد؟ إنني على موعد، ولن أعود قبل العاشرة."
أومضت عيناها الزرقاوان وتساءلت:
"موعد؟ في المساء؟"
وكان يقف ويداه في جيبه، ووجهه مكفهر بالخشونة التي أصبحت أخيرا جزءا من قسماته. وقال:
"هناك أناس لا يمكن اللقاء بهم في النهار، ولهذا يقابلونني مساء، مثل بولا التي تعمل طيلة النهار."
كان بوسعه أن يعتذر، ولكن بولا لم يكن يسعدها أنه يفضل البقاء في البيت. وبرغم اقتناع هيلين بأنها تضيع الوقت، الحت قائلة:
"إنهما سيشعران بمهانة كبيرة. وأنا سأشعر بحرج شديد. ماذا أقول؟"
تحرك في ضيق وقال:
"لماذا لم تستشيريني قبل دعوتهما؟"
فاقرت بصراحة:

"أعتقد أنه كان ينبغي علي ذلك. سيكون الموقف صعبا بالنسبة الي يا ليون."

فانبعثت من شفتيه زفرة وقال:

"حسن جدا، سأرجىء عملي. لكن أرجو استشارتي في المستقبل. ليس من اللياقة في العمل أن أضرب موعدا ثم ألغيه قبل حلوله بوقت قصير."

غشي عينيها شيء من الحيرة، هل يحتمل أنه لم يكن يلقى بولا كل مساء؟ هزت كتفيها، وعاودها كل الأسى المرير. كان حاذقا. ألم يثبت لها هذا بأدلة لا سبيل لانكارها؟"

جاءت ترودي وتاسوس مبكرين، فقضى الجميع الفترة الاولى من الأمسية في الحديقة، وأثار مرح الطفلين وجود ضيفين فرفضا أن ينصرفا، وارتفع صوتاهما وضحكهما طيلة الوقت. فقال تاسوس:

"هذان الاثنان محظوظان. فقدا أبا وأما، فوجدا غيرهما."

والتقت نظرة هيلين بنظرة زوجها فاذا باختلاجه سخرية تلم بفمه وعينيه. اذ طرأ على مسلكه نحوها تغيير تام منذ أحضر الطفلين من عند آسمينا، على غير توقع قبل أسبوعين عندما فتر اهتمامه بها ورغبته فيها، وعادت العلاقة التي كانت قائمة في بداية زواجهما. واعتقدت هيلين أن هذا هو ما تريده. ألم تتوقع هذا عندما قبلت عرضه للزواج؟ أما الشيء الذي تأباه، فهو الطريقة المتسلطة والآمرة التي كان يكلمها بها أحيانا. ولو سمح لها بقدر من الحرية، لقنعت بنصيبها محتملة. لكنها مع تتابع الأيام أخذت تشعر باستياء متزايد. وأصبحت تشعر - في بعض الاحيان - بأن الظفر بنصيب من انتباهه خير من عدم الاهتمام بها بتاتا.

أدركت أن بصر ترودي مركز عليها بتفرس، فالتفتت اليها مبتسمة. أتراها لاحظت شيئا؟ إنها لا تحتمل أن يظن أحد أنها لم تعد جذابة لزوجها.

انساب اليهم صوت فيونا العذب وهي تقول:

"هل تسمح بأن تأتي وتدفعني يا عمي ليون؟ تشيبي لم يعد راغبا."

فقال تشيبي عندما نهض ليون وسار الى الارجوحة:

"إنه دوري... إنها تريد الارجوحة طيلة الوقت."

"حسنا يا فيونا، اتركي الارجوحة."

وحاولت أن تتمنع، ثم رمقت عمها من تحت

أهدابها الطويلة بإغراء:

"ادفعني مرة أولا... أرجوك."

صاح:

"انزلي."

فأطاعت. وضربها بصفحة يده، فاتسعت عيناها دهشة للمفاجأة ورمته بنظرة شاكية، وصاحت:

"لقد أوجعتني!"

وهرعت الى هيلين وهي تفرك أثر الضربة وتقول:

"إنه قاس، لم أعد أحبه."

فضحك الجميع فرمقته باستهجان، بينما بسطت هيلين ذراعيها قائلة:

"مسكينة يا فيونا! تعالي واجلسي على ركبتي."

قالت تشكو:

"لكم أوجعني! إنه فظيع!"

فأراحتها هيلين على ركبتها قائلة:

"إنني أحبك، ولكني لا أحبه."

قالت ترودي وفي صوتها نبرة حنين:

"أنا واثقة بأنك تحبينه كثيرا. وهو يحبك قطعا."

فقالت فيونا وهي تراقب عمها يدفع الارجوحة:

"كلا، لو كان يحبني ما أوجعني!"

وجال بخاطر هيلين: "صدقت، فالمرء لا يوجع الذين يحبهم." ترك ليون الأرجوحة وعاد اليهم، فوقف بجوار مقعد هيلين. وطافت عيناه بزوجته في غير مبالاة، ثم استقرتا على وجه ابنة أخيه، فقال:

"ما بالك؟"

فقالت:

"أوجعتني، لم أعد أحبك. إنني أحب عمتي هيلين، فهي لا تؤلم أحدا."

ساد صمت وجيز. وشعرت هيلين بالدماء تتصاعد الى وجنتيها عندما التقت عيناها بنظرة زوجها المتفرسة. وقال بصوت خافت:

"ألا تؤلم أحدا يا فيونا؟"

فزادت فيونا ذراعيها احكاما حول عنق هيلين، وقالت مؤكدة:

"كلا، إنها دائما رقيقة، ولهذا أحبها."

انبعثت منه زفرة وجيزة، وجلس الى جوار تاسوس، وانهمك الرجلان في الحديث. فقالت هيلين بعد برهة:
"سأذهب لأعنى بالعشاء، فان أراتيه متوعكة، ولم تأت اليوم."
فنهضت ترودي قائلة:
"هل أساعدك؟"
"كل شيء جاهز، والطعام في الفرن. لم تبق سوى المائدة."
فقالت ترودي وهي تتبعها:
"سأتولى إعدادها."
أعدت ترودي المائدة، وشغلت هيلين بعمل المطبخ. ثم نادت الطفلين، فغسلت أيديهما، وهما محتجان بأن الوقت مبكر للنوم. ولاحظت هيلين نبرة الحنين تسري ثانية في صوت ترودي وهي تلاطفهما. فاعترفت بأنهما - هي وتاسوس - يريدان أطفالا، فاذا لم يرزقا قريبا، فسيقومان بتبني طفل.
قالت هيلين:
"من العجيب أن تعنيا بأبناء غيركما."
وعجبت في نفسها مما تفعل لو أبعد تشيبي وفيونا عنها. لم يكن عمهما قد تبناهما قانونيا، وكانت هيلين تفكر في أمها أحيانا.
سأل تشيبي والأمل يراوده وهو يتأمل الحلوى والفواكه التي نسقتها هيلين في أطباق فضية:
"ألا نستطيع البقاء لتناول العشاء معكم؟"
وقالت فيونا:
"كم من العمر يجب أن تبلغي لتستطيعي البقاء للعشاء؟"
فقالت هيلين وهي تضع عشاءهما على منضدة صغيرة بجوار النافذة:
"تعاليا وتناولا البسكويت والحليب."
قالت فيونا:
"قد يسمح لنا عمي ليون لو طلبنا منه."
فقال ليون عندما أقبل من الشرفة وسار الى الثلاجة:
"بماذا أسمح؟"
قالت:
"نريد أن نبقى مستيقظين، لنتناول العشاء معكم."
وتطلعت اليه في اغراء، فمست فمه ابتسامة خفيفة وقال:

"إنك تطلبين البقاء... في حين أنك لم تعودي تحبينني."
فبادرت قائلة:
"ولكني أحبك الآن، احبك بقدر ما احب عمتي هيلين."
قال:
"هكذا أرحت قلبي."
وفتح باب الثلاجة، ونظر في داخلها، ثم سأل عابسا:
"أليست لدينا مشروبات معبأة في علب؟"
فخفت اليه هيلين قائلة:
"إنها في الجزء الخلفي."
وبدأت تنقل الاشياء التي تحجبها. ومدا يديهما معا لاحضارها. فتلامست اليدان. وأسرع ليون يسحب يده. وتركها تخرج العلب وقدمتها له، فتناولها بدون كلمة، حملها والأكواب عائدا الى الحديقة. وظلت هيلين بجوار الثلاجة تفرك يدها برفق حيث لامست يد ليون. وطرفت عيناها فجأة. ألم تنقض سوى أسابيع قليلة حقا. منذ كان يدللها بحنان؟.. منذ كان ينتهز كل فرصة ليمسك بيدها، أو يحيط كتفها بذراع رقيقة؟ وها هو ذا الآن لا يطيق مجرد تلامس أصابعها بأصابعه.

* * *

أخيرا ذهب الطفلان الى فراشيهما. وانتهى العشاء والسهرة على وجه بهيج بدون أن يخطر للضيفين أن بين هيلين وزوجها قطيعة ما. وارتاحت هيلين الى تخليه عن المسلك الصارم الذي انتهجه أخيرا نحوها.
قال تاسوس وهم يهمون بالافتراق:
"يجب أن تزورانا."
وكان مع ترودي في السيارة بينما وقف ليون وهيلين بجوارهما، قال ليون:
"لندع تحديد الموعد يوما او اثنين. سأخبر هيلين متى أخلو لذلك."
هل كان يعني أنه لن يرد الزيارة؟ تمنت هيلين لو أنه لا يفعل ما يفسد صداقتها مع ترودي، كما فعل بالنسبة

الى روبرت. فقد نفذ صبر روبرت منذ رضخت لرغبة زوجها وتخلت عن العمل في الفيلا حتى لم يعد يحييها، ولو بايماءة من رأسه، اذا تصادف أن تقابلا في القرية.

قالت ترودي، وهي تطل من نافذة السيارة:

"أتمنى أن يأتي الطفلان في وقت ما. لماذا لا تحضرينهما حين تأتين يوم الجمعة؟"

فقالت هيلين مترددة:

"لا أدري، ربما يكونان شديدي الصخب، ولديك أشياء بديعة في البيت."

فقال تاسوس:

"وفي منزلكما أيضا، إننا نحب الناس في المسكن، فلا تشغلي بالك بالاشياء."

تدخل ليون قائلا:

"لا أتصور أنهما يسيئان السلوك يا هيلين. سنذهب جميعا الى نيقوسيا يوم الجمعة."

ظلت هيلين وليون واقفين حتى غابت السيارة وراء منعرج، ثم دخلا البيت. ولاح لها أن المناسبة الاجتماعية البسيطة خففت من التوتر بينهما. فقالت تستدرجه:

"أنا استمتعت بوجودهما. وأنت؟"

فقال وهو يتثاءب:

"كانت من أبهج الامسيات... وكان طعامك ممتازا."

ابتسمت وهي تجلس، وتود أن يحذو حذوها. ما بالها؟ قد لا يؤدي هذا الا الى هوانها، فليون لم يعد يأبه لها، وكانت كرامتها تحول دون أن تتسول أية محاباة أو وصال. ولكن، ليته يكون رقيقا فحسب، فلم تكن تحتمل أن تستمر على هذا المنوال. كان من السهل أن تقول أنها لم تعد تحفل به، ولكن من العسير أن تقنع نفسها بصدق هذا.

قال ويداه في جيبه:

"الوقت متأخر. أرى أن أذهب الى فراشي. طابت ليلتك يا هيلين."

فغاص قلبها، وقالت بصوت مرتجف:

"طابت ليلتك يا ليون. إنك على صواب، فالوقت متأخر."

* * *

اتصلت العمة كريسولا هاتفيا - في اليوم التالي - تسأل عن ليون فلما أخبرتها هيلين بأنه في المكتب، قالت مغضبة:

"كلا، ولا أجده كلما طلبته هاتفيا. ماذا فعل بصدد الدار التي سيبتاعها لي؟ قال منذ أكثر من أسبوع انه رأى ما يناسبني ولكن الثمن مرتفع كثيرا. وكنت أتوقع أن يتمكن من تخفيضه."

"ألم يتصل بك بعد ذلك؟"

"لم أره ولا سمعت منه. في أي حال، أين هو؟ لماذا ليس في مكتبه؟"

"لا أدري يا عمتي كريسولا. لعله خرج في عمل..."

"لماذا؟ كل يوم؟ أخبريه بأنني أريد رؤيته هذا المساء!"

"إنه يعود متأخرا عادة ولكني سأخبره عندما يعود. وإذا لم يكن الوقت متأخرا جدا فقد يوافيك، والا فسيأتي في وقت آخر.."

"وقت آخر؟ متى؟ اسمعي يا هيلين، ما الذي يجري؟ لماذا لا يعود للبيت مبكرا؟ أين يذهب؟"

ترددت هيلين. كان واضحا أن العمة كريسولا في دهشة من سلوك ابن أخيها، واحتارت هيلين، أتنتحل لليون أعذارا؟ ولكن، ماذا تقول؟ وانتهت الى القول:

"لست أدري أين يذهب. فهو لا يحدثني في شؤون عمله."

صاحت العمة:

"عمل؟ أتقولين انه ينجز عملا في الليل؟"

وازاء عجز هيلين عن الجواب، لاذت بالصمت. فاسترسلت العجوز وفي صوتها نبرة الشك:

"لم يكن أبدا ممن يترددون على المطاعم والمقاهي، أعني بانتظام. فأين هو؟"

ووعدتها هيلين بأن تبلغه رسالتها، ثم أعادت السماعة.. لم يكن ليون في المكتب، ولم يعد الى البيت إلا في ساعة متأخرة؟ لعله من الأفضل أن يذهب ويعيش مع بولا مكسويل! وحاولت أن تكبح دموع الغضب، ولكنها ما لبثت أن أسلمت نفسها للبكاء. واذ ذاك أقبلت فيونا فأخذت تحدق فيها مذهولة، ثم أحاطت خصرها بذراعيها، قائلة:

"لماذا تبكين؟ أرجوك، لا تبكي، هل أنت حزينة يا عمتي هيلين؟"

جففت هيلين عينيها، واصطنعت بمجهود ابتسامة

باهتة، وقالت:
"كلا، يا عزيزتي، ولا شيء."
لكن الدموع عادت. وحاولت هيلين التخلص من ذراعي فيونا، لكن الصغيرة تعلقت بها بشدة وشرعت تبكي فهتفت هيلين:
"اسكتي يا فيونا العزيزة، لا شيء هناك اطلاقا."
"بل إنك حزينة، ما كنت تبكين لو لم تكوني حزينة."
جففت هيلين عينيها وتحولت تمسح الدموع عن وجه فيونا الصغيرة، وهي تقول:
"لست حزينة يا حبيبتي. كوني مطيعة وكفي عن البكاء."
قالت فيونا وجسمها يرتج بالتشنج:
"لماذا كنت تبكين؟"
فضمتها هيلين لحظة بدون كلام، ثم قالت أخيرا:
"لم أكن بصحة جيدة."
فتطلعت فيونا بلهفة، وبدا أنها على وشك البكاء ثانية. بادرت هيلين قائلة، وقد حزنت لتكدر الطفلة:
"لم أعد كذلك. إنني الآن بخير يا عزيزتي."
دهشت هيلين إذ اتقدت عينا ليون غضبا، عندما أبلغته رسالة عمته وقد عاد الى البيت مبكرا خلافا للعادة. وصاح محنقا:
"هل تتصور أنه لا يوجد ما يشغل بالي سوى دارها؟ عليها أن تنتظر فهناك أمور أهم تحتاج العناية حاليا."
ما هذا السخط؟ وما معنى هذه الكلمات؟ هل حدث بينه وبين بولا ما يسوء؟ أم أن علاقتهما أصبحت أكثر عمقا وتوريطا؟ واضطرت الى أن تسأله:
"ما هذه الأمور الهامة يا ليون؟" ولكنه هز رأسه وأبى أن يخبرها. وإن كانت توقعت ذلك، كان يبدو مجهدا، ولاحظت عينيه كذلك، لكم تبدوان متعبتين! ونتف الشيب عند سالفيه بدت بيضاء تقريبا! ما الذي ألم به؟ وفي لحظة وجيزة لم يخالجها سوى الحب والحنان، وتحرقت الى أن تحيطه بذراعيها، وأن تجذب رأسه الى صدرها لتواسيه. لكنها أسرعت تقاوم لين قلبها. إن ما حدث - أيا كان - لا يعني سوى بولا. وإذا انغمس في علاقة كهذه، فعليه وحده أن يحمل عبء أي، متاعب تترتب عليها. لماذا تمنحه عطفها وهو يضن عليها بالعطف؟

لم يخاطبها لساعة أو أكثر. وعندما أقبل تشيبي يطوح بكرته ويتلقفها وصاح فيه مغضبا، صاحت على الرغم منها:
"ليون! لا داعي لأن تكلم تشيبي هكذا."
وجاء رده حادا، فصاحت به:
"لا حاجة لك بأن تصرخ، فلست صماء."
حدجها بغضب، وهم أن يتكلم، ثم سكت وأخلد للصمت. وكانت هيلين تتأجج غضبا. ظلت أسبوعين تقضي الامسيات وحدها، ولما عاد مبكرا مرة، لم يفعل سوى أن ينفث غضبه فيها وفي الطفلين. وسعت الى الحديقة لتنضم الى الصغيرين، وتركوه وحيد. لكنه ما لبث أن جاء وقال أنه ذاهب لمقابلة عمته - كان صوته قد فقد حدته، لكن مزاجه ظل مكدرا. فسألته:
"هل عثرت لها على دار صغيرة؟"
"كما تبتغي لكن أغلى مما توقعت. على أن بيتها العتيق جلب سعرا ممتازا فستخرج بفائض كبير."
ودفع يدا كليلة خلال شعره، ثم انطلق - وهو لا يزال مضطربا متعبا. وانتقلت حاله الى هيلين، فلن تطق البقاء وحيدة أمسية أخرى، واستبقت الطفلين.. ولدهشتها عاد ليون قبيل الساعة التاسعة فلما رأى الطفلين ساهرين، قالت:
"استبقيتهما ليؤنساني. من الممكن الآن أن يذهبا الى النوم."
قال/مترددا:
"لا داعي اتركيهما فترة، أحضري عشاءهما هنا."
عجبت هيلين. كان دائم الحزم بالنسبة لموعد نومهما. وهزت كتفها وذهبت الى المطبخ، وعندما عادت الى حجرة الجلوس، وجدت فيونا على حضن عمها، وذراعها حول عنقه، ووجنتها تلتصق بوجنته. أما تشيبي فظل جالسا على السجادة، واجما. وأطل عليه ليون من مجلسه لحظة - ثم بدا على وشك البكاء. وأدركت هيلين ما به. ولكن ليون عاد يسأله، فقال مشيحا ببصره:
"إنك لا تحبني قدر ما تحب فيونا، صرخت في مغضبا، عندما كنت ألعب بالكرة."
بسط ليون ذراعه للصبي، قائلا:
"إنني آسف يا تشيبي" وجلس الطفلان على ركبتي ليون. وكان وجهه متواريا عن هيلين، حين دخلت الحجرة

لكنها شعرت بحزن عميق يتملكه. ليته يخبرها بما يكربه!
مالت فيونا تتفرس في وجه عمها الاسمر، وسألته:
"اتحب تشيبي بقدر ما تحبني؟"
فقال:
"أحبكما سواء."
كانت هيلين تعرف أنه صادق. وما كان ثمة شك أنه أخذ يزداد حبا لهما. ولم تملك سوى أن تواصل التحديق فيه. فالنبرة المرتجفة في صوته، كانت توحي بتعاسة خالصة - وذراعاه كانا تحيطان تشيبي وفيونا باحكام، وبدا كأنه لن يفلتهما أبدا. وقالت هيلين مؤنبة نفسها:
"ما بالي؟"
ثم أردفت لمجرد تخفيف التوتر في نفسها:
"هل سويت كل شيء مع العمة كريسولا؟ هل ترغب في الدار التي وجدتها لها؟"
أومأ برأسه - ورمقها بنظرة عابرة، شعرت معها أنه لا ينتبه اليها مطلقا. وقال وهو يسحب ذراعه ينزل تشيبي انتظارا للعشاء:
"إنها سعيدة بالصفقة كلها. زال عن ذهني هم واحد على الاقل."
واحد... ما المشكلة الفظيعة التي تشغل بال زوجها؟ هل تتعلق بشيء غير علاقته ببولا؟ هل هي متعلقة بالمال؟"
عندما أوى الطفلان الى الفراش، وغسلت صحون عشائهما، عادت الى حجرة الجلوس، فاذا ليون على الاريكة، وقد أسلم رأسه الى راحتيه. واعتصر الاسى قلبها، ونسيت بولا، وكل شقاق، وكل كلمات غاضبة دارت بينهما. لم تعد واثقة الا انها لا تزال تحبه، وأنها ستظل تهتم به مهما فعل بها في الماضي أو في المستقبل - ومست كمه في تهيب وقالت:
"ليون. ألا تخبرني بما يغيرك؟ أهي النقود؟"
فبادر قائلا:
"كلا، يا هيلين. ليست خسارتي في النقود."
كان واضحا أنه خسر شيئا. لعل بولا نبذته. وعادت تسأله:
"إذن ماذا؟ ألا تخبرني بما يسوءك يا ليون؟"
لم يجب على الفور، بل استغرق في التفكير، وشعرت أنه كان يحاول أن يتخذ قرارا. لكنه قال أخيرا في هدوء وحسم:
"كلا يا هيلين، لا أستطيع أن أخبرك."

سحبت يدها، وشاحت ببطء والأسى يفيض في قلبها. لم يكن لجوابه سوى معنى واحد، هو أن شقاءه متصل ببولا. فلو كان له سبب آخر، لما وجد مبررا يمنعه أن يخبرها.

* * *

كان عليهم أن ينطلقوا مبكرين يوم الجمعة، لأن ليون يريد اللحاق بالقافلة. وكان هذا يعني أن يصلوا الى نيقوسيا قبل الساعة الثامنة فاقترحت هيلين أن يمكثوا في المكتب فترة، وقال ليون:
"أخشى أنني سأكون مشغولا. سأقلكم مباشرة الى بيت ترودي. إنها تعرف أنكم قادمون مبكرين، لأنني قلت أنكم ستأتون معي."
"ولكن الساعة الثامنة. كلا يا ليون، إذا لم تردنا في المكتب، فسنقوم بجولة بعض الوقت."
قال:
"ليست المسألة أنني لا أريدكم. ولكنني مشغول جدا."
لا أثر لاعتذار في صوته، ولكن السبب كان واضحا. لا داعي للقلق، فهي لن تسأله أبدا عن اللوحة، لأن كبرياءها يمنعها.
قالت فيونا:
"ولكني أريد الذهاب الى المكتب، فلم أره سوى مرة واحدة."
وقال تشيبي:
"سنلتزم الهدوء يا عمي ليون."
كان ثيو موجودا عند وصولهم، وقد انصرف الى ري الزهور حول الجدار الخارجي وعلى جانبي السلم.
قالت فيونا وهي تسير على السجادة السميكة، متأملة كل ما حولها:
"ما أجمله! لم يكن هكذا من قبل."
فقال عمها:
"هكذا كان تماما، لكنكم لم تنتبهوا لأنكم كنتم تشعرون بغربة!"
حقا، ألم يكن الطفلان يقولان أن عمهما فظيع! وكانت هي نفسها مضطربة، لا تدري كيف سينسجمان مع رجل

اشتهر بأنه يكره الأطفال. لكنه سرعان ما تعود أن يحبهما، وسرعان ما بادلاه حبا بحب. ليته يحفل بها هي، عندئذ سيكونون أسرة سعيدة.

كان ليون يهم بالانتقال الى المكتب الداخلي، حين رن جرس الهاتف ورفع السماعة، وسرعان ما بدا التحفظ على محياه، والقى بنظرة سريعة نحو هيلين لم تدع لديها شك في أنه يفضل أن تكون في مكان آخر. وكانت كلماته حذرة، وما لبث أن غطى السماعة براحته، وقال:

"أتسمحين باصطحاب الطفلين الى الخارج يا هيلين؟ آسف، ولكن هذه المكالمة خاصة، ادخلوا مكتبي."

وشحب وجهها لكنها لم تجب، بل دفعت الطفلين بلطف الى حجرة ليون.

ترى من على الطرف الآخر من الهاتف؟ كانت امرأة، اذ سمعت هيلين صوتها. امرأة كانت تعرف بعزمه على الحضور الى المكتب مبكرا. ما الذي قالته حتى يبدو الحذر في عينيه؟ كان كل ما أتيح لهيلين سماعه هو: "صارحتك بالأمس، لكنك حين اتصلت ثانية وقلت أنه غير كاف، سحبت ما عرضت. فقلت أنك ستتصلين ثانية في الصباح. نعم، بوسعك أن تناليه بالتأكيد."

بعد لحظة او اثنين، أقبل ثيو، وسار الى المكتب، فاخذ بعض الاوراق. وسقط دفتر شيكات ليون على الارض، فانحنت هيلين تلتقطه، ولكن ثيو سبقها. وقال وهو يشعر بالحاجة الى بعض الايضاح:

"هذا ما يريده السيد بيترو. الشيك للسيدة."

وابتسم وهو ينتزع شيكا ثم يعيد الدفتر الى الدرج. وخرج. وما لبثت هيلين أن سمعت سيارته تنطلق. السيدة؟! لمعت عيناها، ثم غامتا. ولمحت الرقم، حين وقع الدفتر مفتوحا - خمسة ملايين من المليمات - خمسة آلاف جنيه! واتجهت نظراتها الى الدرج الذي احتوى الدفتر. وكانت فيونا قد خرجت الى الشرفة، بينما ظل تشيبي جالسا في مقعد عمه. وتسارعت دقات قلبها لما جال بخاطرها... فهناك خطأ. ولكن، لا بد أن تعرف. فقد لا تكون المرأة بولا. وراحت تدعو ألا تكون هي. اذ لمحت تاريخ الشيك وحرف "ب" لماذا أعطاها النقود؟ هل تورطت بولا في دين؟ ألهذا كان ليون قلقا ومهموما؟

نظرت اليه عندما دخل الحجرة، فاذا معظم القلق فارق محياه وبدا أن هذا كان علة قلقه وهمه حقا. وقبل أن تتكلم، اندفعت فيونا الى الحجرة قائلة:

"أشعر بألم يا عمي ليون."

وتعلقت به، وشرعت تبكي قائلة:

"إنه شديد!"

ورفعها وأجلسها على ركبته، وقال:

"أين الألم؟ في بطنك؟"

فهزت رأسها وقال:

"كلا، لا أدري، زال الآن."

وتناول منديله فجفف عينيها وهو يقول:

"الفتيات الكبيرات لا يبكين لمجرد الشعور بتوعك."

"العمة هيلين فتاة كبيرة، وهي تبكي حين تشعر بتوعك."

اتجهت عيناه الى هيلين، فاحمر وجهها وهو يقول:

"متى كانت العمة هيلين مريضة؟"

فقالت الصغيرة:

"منذ أيام، وبكت كثيرا. أليس كذلك يا عمتي هيلين؟"

وسمعت أخاها يناديها، فأسرعت اليه. وعندئذ سأل ليون زوجته:

"لماذا كنت تبكين يا هيلين؟"

لم يعد صوته خافتا رقيقا، بل عادت خشونته المفاجئة. وقالت:

"كنت متوعكة، كما قالت فيونا."

"لا تكذبي، لا بد أنك كنت أكثر من مستاءة حتى أنك سمحت لفيونا أن تراك باكية، لعل هذا يرجع الى أنني لم أسمح لك بلقاء صديقك الانكليزي."

وحدقت فيه بحيرة، وقالت:

"لا أظنني أفهمك يا ليون. لماذا تقحم روبرت؟ كاننا لم نكن مجرد صديقين."

"إنكما أكثر من صديقين بكثير، فلا داعي لأن تحاولي التغرير بي."

اشتدت حيرتها. وصاحت:

"كيف تجسر على هذا القول؟ إنني لا أكاد أعرفه!"

بأي حق يجلس هناك ويرميها باتهامات، وهو أعطى بولا منذ قليل خمسة آلاف جنيه؟ هل تخبره بما عرفت؟ كلا،

من حقه أن يفعل بنقوده ما يشاء؟
"إن معرفتك به كانت كافية لأن تدخليه بيتي!"
"أدخله؟ كيف لك أن تعرف؟"
"قيل لي أن هذه الامور تنتشر."
واحتقن وجهها غضبا وهتفت:
"ولكن من؟ أهي التي أخبرتك؟"
فقال:
"هي؟"
"أنت تعرف جيدا. بولا مكسويل!"
"أصبت إنها أخبرتني."
حملقت فيه حائرة. أكان يعرف طيلة الوقت، ومع هذا لم يخبرها إلا الآن. أكان ليون من النوع الذي يظل صامتا ازاء أمر كهذا؟ لماذا لم ينتهز الفرصة لتعريضها مرة أخرى لشقاق عنيف؟ أمر يتعذر تصديقه. وسألته:
"لماذا لم تقل شيئا عن هذا قبل الآن؟"
"كانت لي أسباب خاصة."
"أية أسباب؟"
قال:
"إنها لم تعد الآن ذات أهمية؟ المهم انني لم أدع زوجتي تجري في كل مكان مع رجال القرية."
فاشتد احمرار وجهها وصاحت:
"رجال! لا أسمح لك بأن تقول هذا لي. كيف تجسر وأنت تخرج معها."
فنظر اليها مذهولا:
"معها؟"
اشتدت فورة غضبها، وألقت اليه بكل ما عرفت:
"بولا مكسويل! هل أخبرتك عن روبرت؟ ألا اسمع... عندما رد روبرت على مخابرتك، ظننته أنت، وأخذت تحدثه عن الغذاء الذي دبرتماه."
اعتدل في مقعده، والدهشة تكسو محياه، وهتف:
"غذاء؟"
واشتد غضبها، فمضت تقول بصوت مرتجف:
"أجل... ولا داعي لهذا التظاهر، فأنت تعرف كل شيء. كانت تطلب منك أن تحضر طعاما وشرابا، ركما كنتما ذاهبين الى العراء."

ونطقت العبارة الأخيرة بتؤدة متعمدة، لتستقر كلماتها في نفسه، ثم سكتت في حيرة، عندما استلقى زوجها في مقعده ويداه في جيبه وعلى محياه مزيج من الدهشة والارتياح. وزادها حيرة أن قال في هدوء وخفوت زادها هياجا:
"أتصدقين هذا حقا يا هيلين؟ أهو السبب في... أهذا ما كان يضايقك؟"
"أصدقه؟ طبعا. فكل شخص يعرف بعلاقتك مع بولا، أخبرني روبرت أنك كنت تصاحبها قبل أن تلتقي بي."
"كنت وبولا صديقين يوما."
"ولا تزالان... أما أن يضايقني هذا، فأنت تتملق نفسك. لا أهتم ولو كنت تصاحب عشر نساء! إذا كنت تقضي معها كل مساء، إذا كنت أعطيتها لوحتي؛ مع أنك قلت أنك تعجب بها جدا..."
وناضلت لتكبح الدموع الحارة التي وثبت الى مقلتيها، وواصلت حديثها غير مكترثة بكتمان شيء:
"لست أحفل بأنك أعطيتها خمسة آلاف جنيه!"
"أأنت؟ كيف تعلمين بهذا؟"
وشرحت له ما حدث، وأردفت متحدية:
"روبرت صديقي، ولا يهمني ما تظنه بي، لا أحفل بشيء."
وهرعت مغادرة المكتب، وهي تناضل لتهدئة نفسها، وراحت تنادي الطفلين. وسمعت صوت زوجها يناديها بلطف، ولكنها واصلت ركضها، حتى كادت تصطدم برجل طويل، أشيب، أقبل على المبنى. وسمعت صوت زوجها يزداد اقترابا:
"هيلين... أيتها الحمقاء الصغيرة."

١٠ - لغز اللوحة

كان من المتوقع أن تفطن ترودي لحدوث شيء ما، فما أن خرج الطفلان يلهوان في فناء البيت، حتى سألت هيلين في لهفة عما يزعجها، وأجابتها بصوت متهدج:

"لا شيء يا ترودي."

وجاهدت لئلا تبكي، لكن ترودي ألحت عليها، حتى أفضت اليها بكل شيء وجزعت ترودي. وحدقت فيها غير مصدقة في البداية لكنها تقبلت القصة شيئا فشيئا.

"أعطاها خمسة آلاف جنيه؟"

"وهكذا ترين أنه لا بد مدله بهواها."

"لماذا لم يتزوجها؟ ألم تقولي أنه عرفها قبل أن يعرفك؟"

"كانت تتوقع دائما أن يتزوجها، لكنه لم يكن ممن يتزوجون. ولعله ما كان يتزوج لولا الطفلين."

أرسلت ترودي صفير دهشة، وقالت:

"خمسة آلاف جنيه... لا بد أنها استدرجته حيث تريده بلا شك."

"لا شيء يمكن أن يزيد الموقف سوءا بيننا. ليتني أستطيع أن أتركه، ولكني لا أستطيع ترك تشيبي وفيونا أبدا."

أحاطتها ترودي بذراعها، وقالت:

"سيجلبان لك السعادة يا هيلين. إنني متأكدة."

وتهدج صوتها، وهي تقول:

"تصوري أن يحدث هذا لك أنت دون الناس جميعا! وكأن صدمة واحدة لا تكفيك."

"أنا المخطئة يا ترودي. أقسمت الا اتعلق بأحد ثانية، والا أدع رجلا آخر يجرح مشاعري."

"الذي لا أفهمه هو لماذا أخبرك بكل هذا عن روبرت صباح اليوم فقط؟ لا بد أنه عرفه من مدة."

"أجل، وهذا يحيرني أنا الأخرى، لأنه أصبح في الفترة الاخيرة شديد الحرص لماذا يلزم الحذر؟"

كان ليون يبدو حذرا بالتأكيد في الاسابيع القلائل الماضية. وكان فاترا نحوها، لكن بدون مشاجرات ولا كلمات جارحة. وحرص على التباعد. وعللت هذا بأن رغبته تضاءلت، لكنها الآن لا تجزم بهذا. أترى السبب أنه... لعلة ما... لم يشأ أن يثير اضطرابها، أو يجعلها تزداد تبرما بحياتها؟ لكن، ما سر هذا التغير المباغت؟ لو لم تروعه اليوم لعرضها - مرة أخرى - لمشهد عنيف، وجعلها تشعر - مرة أخرى - بقوة سلطانه.

مرة أخرى، سألت نفسها: ما السبب في التغير؟ وقالت وكأنها تفكر بصوت عال:

"هناك أمر لا أفهمه يا ترودي. ولكن، لا قيمة له لأنه لا يمكن أن يحدث أي اختلاف بالنسبة الى ليون والي."

قالت ترودي أثناء تناول الغداء:

"لا يزال الامر كله يحيرني. لا يبدو اطلاقا أن ليون من الصنف الذي يتعمد ايلامك على هذا النحو. ان تاسوس كثير الاعجاب به."

ايلام؟ إنه تعبير مخفف لوصف معاملة ليون إياها في بعض المناسبات. وتدفقت الذكريات. كانت هناك أوقات بدا فيها أن ليون لا يريد شيئا أكثر من أن يكون معها ومع الطفلين. وتذكرت مشاعرها نحو زوجها وهي تتطور ببطء، وبرغم ارادتها، تقاربا حتى شعرت بسعادة ما كانت تعتقد أنها ممكنة. ثم كان إعطاء لوحتها لبولا. كانت هذه هي البداية...

اقتحم أفكارها صوت تشيبي:

"هل أستطيع الخروج للرياضة بعد الغداء؟"

فرفعت بصرها وابتسمت له. ثم سألت صديقتها:

"أيناسبك هذا؟"

قالت ترودي:

"تماما، فأنا أحب المشي."

كانت الساعة الرابعة حين عادوا الى البيت، فاذا ليون يجلس في السيارة أمامه، ووجف قلب هيلين لكنها حاولت أن يكون صوتها رصينا وقالت:

"إنك مبكر يا ليون."

وغادر السيارة ووقف يتأمل هيلين وعلى وجهه أغرب تعبير.

"إنني أنتظر منذ أكثر من ساعتين."

أمسكت فيونا بيده، وألصقتها بوجنتها، وقالت:
"كل هذه المدة يا عمي ليون؟ كنا نتريض فمشينا أميالا."
وسأله تشيبي:
"هل جئت لتصطحبنا الى البيت؟ قالت العمة هيلين أننا سنعود في القطار."
غمغم ليون وهو لا يزال يرمقها بتعبير عجيب:
"إن ما تقوله العمة هيلين يختلف عما أقوله. أحيانا يخطر على بالها أغرب الأفكار يا تشيبي."
ما كانت لتخطىء المعنى العميق وراء تلك الكلمات، فحدقت فيه، وهي تفطن الى اهتمام ترودي فتشعر بالحرج. وأخيرا قالت ترودي، وهي تتقدمهم الى السلم:
"ألا ندخل؟ إنني أموت عطشا."
وذهبت الى المطبخ فورا لتعد المشروبات. ودخل الآخرون غرفة الجلوس. ودعا ليون الطفلين للذهاب الى اللعب، ولكنهما ارتميا في مقعدين متعبين. وقالت هيلين:
"إنهما متعبان حقا."
وصمتت عندما ظهرت على شفتي ليون لمسة حزم. وتذكرت مسلكها ذلك الصباح، فإذا برجفة تنتابها فجأة. ما كانت تود أن تخلو مع زوجها. قال، وقد سمح للطفلين بالبقاء:
"من أخبرك بأنني فرطت في لوحتك؟"
بدا صوتها عاليا مضطربا وهي تقول:
"مصففة الشعر في القرية... ما كنت أصدق هذا."
قال في لوم:
"كنت أظنك فوق الاكتراث بالشائعات. هل صدقت أنني أفارق اللوحة وقد قلت أنني أريدها في مكتبي."
ابتلعت هيلين ريقها بعناء. كان ثمة خطأ في الامر، فبرغم بقاء اللوم في عيني ليون، سرى خلالهما وميض من حنان. وقالت:
"لكنها ليست في مكتبك."
"لا بد أن أصحح قولك يا عزيزتي. فهي في مكتبي."
اتخذت خطوة قصيرة نحوه، وقالت:
"ولكن... لكنها لم تكن... إذا لم تكن أعطيتها إياها، فأين كانت؟ ظننت أنك أعطيتها إياها لأن.. لأن.."
وأمسكت عندما انتبهت الى أن الطفلين يصغيان اليها.
قال متجاهلا آخر كلماتها:

"الايضاح بسيط يا عزيزتي. لو أنك سألتني عندما سمعت أول مرة، لوفرنا علينا قدرا كبيرا من الشقاء."
ومضى يخبرها بأن الرجل المهتم بشراء الطاحون القديمة أتى اليه أصلا من طرف بولا. وعندما رأى لوحة الطاحون في مكتبه، أراد أن يشتريها ولكن ليون رفض طبعا. إذ ذاك سألني اذا كنت أجعلك ترسمين لوحة أخرى له، ولكني كنت أنانيا، أريد أن أقتني اللوحة الوحيدة من رسم زوجتي. غير أنني أعرته اياها ليصطنع نسخة منها. وكانت بولا تعرف رساما مستعدا لذلك، وهكذا كانت اللوحة عندها. لكنني استرجعتها وهي الآن في مكان مشرف في مكتبي.
وهز رأسه في أسى وقال:
"كيف تصدقين ذلك عني يا هيلين؟"
أخذت تعتصر يديها في حيرة، وقالت:
"لست أدري، إنها لم تكن في مكتبك عندما كنت فيه منذ يومين، فلما قالت ايليني أن بولا تقتنيها، استنتجت بطبيعة الأمر أنك أعطيتها اليها."
وتطلعت اليه، وفي نظراتها بقية من عدم الاطمئنان، وقالت هامسة:
"لديك تفسير لهذا، ولكن.. بقية الأمور الأخرى..."
وأمسكت وهزت رأسها. أي عذر لديه لاعطائه بولا خمسة آلاف جنيه. فأجاب بلطف:
"لدي تفسير لكل شيء."
تطلعت اليه بنظرة متسائلة، وهي تقول:
"كل شيء يا ليون؟"
فغمغم بتفكه حنون:
"إنك رعناء صغيرة يا هيلين؟ ما الذي يجب أن أفعله معك؟"
فرمقته بتوسل قائلة:
"ما التفسير يا ليون؟ كنت تعسة جدا."
لم يتكلم لبرهة، وعيناه شردتا الى الطفلين، ثم قال:
"هيا الى السيارة... أنتما الاثنان."
انزلقت فيونا عن مقعدها، وأمالت رأسها لتتطلع ليه، وقالت:
"هل ستصطحبنا الى البيت يا عمي ليون؟"
فسرى في عينيه أعجب تعبير – وقال بصوت خافت:
"نعم يا فيونا، اذهب الى السيارة يا تشيبي."

وراقبهما حتى خرجا - ثم قال لهيلين:
"هيا يا حبيبتي، حان أن ننطلق."
"ولكنك قلت أنك ستفسر الأمر يا ليون."
فابتسم بحنان، وقال:
"ليس هنا يا حبيبتي، عندما نصل الى البيت، ويأوي الطفلان الى النوم."
هتفت ترودي بعد لحظة، وهما يستأذنان فجأة للانصراف:
"لا أطيق هذا! ما الذي يجري يا ليون؟ لا يحق لكما أن تنصرفا هكذا، وتتركاني مشغولة البال."
فقال ونظرته الحنون لا تفارق وجه هيلين:
"كانت هيلين مضطربة الفكر حين وصلت الى هنا."
تدافعت الدماء الى وجه هيلين. وحاولت أن تستوقفه، فقالت ترودي:
"والآن تتعجلان الانصراف بدون أن تخبراني بشيء، رحمة بامرأة يستبد بها الفضول يا ليون!"
قال:
"إننا ذاهبان الى البيت لنسوي بضع حالات سوء الفهم."
ثم أردف:
"أما ذلك العشاء... فأرسلا لنا دعوتكما عندما تشاءان."
ونقلت ترودي بصرها بينهما، وابتسمت راضية، وقالت:
"سنجعل منه احتفالا."

* * *

كانت ثرثرة الطفلين هي كل ما في السيارة من صوت لبرهة طويلة، ثم قالت هيلين بفتور، لمجرد تبديد الصمت:
"تركت المكتب مبكرا."
ولم يبد أنه لاحظ الفتور، وقال:
"تركته قبل مجيئي بوقت أطول، كان علي أن أحسم مهمة."
وعاد الصمت ثانية، ثم قالت متهيبة:
"قلت إنك ستفسر يا ليون."
قال:
"ما لدي لا يجوز قوله أمام تشيبي وفيونا."

كانت في صوته خشونة مفاجئة، فالتفتت اليه في دهشة. كان فمه ينم عن اصرار فاستلقت في مقعدها ولم تزد.
كانا في الشرفة حين أخبرها بما عاناه منذ يوم ظهور أم الطفلين وتهديدها بأن تأخذهما منه. ومضى يقول:
"رأيت على الفور أنها لا تكن اهتماما حقيقيا للطفلين، ولا تبغي سوى المال. واحسبني كشفت موقفي، فرأت مدى قيمة تشيبي وفيونا لدي، فظلت تجادل بصدد المبلغ... تغير رأيها باستمرار طمعا في المزيد. على أنها قررت أن ترضى بخمسة آلاف... مع أنني كنت مستعدا لأن أزيد لو ألحت."
ساد صمت لا يعكره سوى النسيم يتخلل سعف النخيل على حافة الحديقة... ثم قالت هيلين في جزع:
"ليس لها أن تأخذهما يا ليون... ليس الآن."
فهز رأسه في حزم قائلا:
"كان هذا هو المصدر الحقيقي لقلقي، لكني رفضت أن أعطيها أية نقود ما لم توافق على أن أتبناهما قانونيا. وقد سوينا هذا اليوم. كلا يا عزيزتي، ما من أحد سيأخذهما منا أبدا."
وشدها اليه، فأحست مرة أخرى بفيض حنانه وقوته. فقالت بشعور بالذنب:
"ليتك تجعلني أشاطرك متاعبك."
ثم أردفت بندم صادق:
"لكم كنت حمقاء يا ليون! لا أدري كيف تستطيع أن تصفح عني."
قال:
"صفحت عني مرة. أتذكرين؟ لم يكن الأمر كما ظننت قط يا عزيزتي ما كان ذلك الا لأنني أحببتك."
وأقصاها عنه قليلا ليتأملها بلهفة، وهو يقول:
"هل تصدقينني يا هيلين؟ لا بد..."
"إنني أصدقك... أوه يا ليون، لماذا لم أعرف عندئذ."
قال:
"بسبب جرحك القديم. اعتقدت أن الرجال سواء، وهذا أمر طبيعي."
ومرت برهة طويلة، قبل أن يقول في دعابة رقيقة:
"هناك مسألة بسيطة أخرى، يا حبيبتي الحمقاء الصغيرة. اتهمتني بالذهاب لغداء خلوي مع بولا. إنها تبيع

عقارات صغيرة، وكلفتها بالبحث عن شيء للعمة كريسولا. وكانت لديها قائمة طويلة، وأؤكد لك يا حبيبتي بأن الطواف بالاماكن لاختيار أحدها بالثمن الذي أرادت عمتي دفعه، لم يكن نزهة أو غداء خلويا."

ظلت هيلين صامتة، ورأسها مطرق. وبعد برهة، وضع أصبعا تحت ذقنها، فاضطرت الى أن تتلقى نظرته.

عادت تقول بصوت خفيض، متحشرج:

"لا أدري كيف تستطيع أن تغفر لي. لقد مضيت أتسرع في استنتاجاتي."

فقال:

"وكذلك فعلت أنا في الواقع.. لكني كنت شديد الغيرة من رجلك الانكليزي."

"إنه ليس رجلي الانكليزي... فلا داعي أبدا للغيرة

"سبحت معه، فجن جنوني..."

"السباحة؟ كيف عرفت هذا؟"

قال:

"تركت حقيبتك في الشرفة وفيونا - كما تعلمين - لا تقاوم العبث بأي شيء."

وسكت فكادت هيلين تجفل إذ اشتدت قبضته على ذراعها، وهو يسترسل:

"طاش صوابي عندما أخرجت ثوب السباحة المبتل. أدركت أنه روبرت لأنك لم تكوني تعرفين سواه."

"لماذا لم تخبرني بهذا في حينه يا ليون؟ أعني أنك لم تذكر ذلك إلا هذا الصباح."

قال:

"أعترف بأنني كنت أريد أن أحاسبك على قضائك بعد ظهر ذلك اليوم معه، ولكني لم أجسر."

وارتجف، فاشتدت ذراعيها حوله في حب. بينما واصل حديثه:

"كنت أعرف يا حبيبتي أنه لو قدر لزوجة أخي أن تأخذ الطفلين، فستكونين في حل من أن تتركيني، لأن الطفلين وحدهما هما اللذان أبقياك هنا."

بادرت مسرعة:

"كلا... كلا يا ليون... ما كنت لاتركك أبدا يا حبيبي... فلم يكن هناك داع لجزعك..."

"ولكني اعتقدت أنك ستتركينني، فلزمت الحرص والحذر، لا أجرؤ على أن أثير عداءك، أو أجعلك غير راضية عن حياتك. كم كنت أخشى أن أفقدك!"

وضمها اليه، وحمل اليها النسيم عبير الصنوبر. وكان الصمت شاملا، فهمست:

"لن تفقدني أبدا يا ليون. إنني لك الى الأبد!"